
الاستقلال الحضاري
د. محمد عمارة
نهضة مصر

الاستقلال الحضاري

تأليف

د. محمد عمارة



اسم الكتاب: الاستقلال الحضاري

المؤلف: د. محمد عمارة

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2007م

رقم الإيداع: 2006 / 22873

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3830-4

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3472864(02) - 3466434(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287(02) - 8330289(02) فاكس: 8330296(02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة
ت: 5909827(02) - 5908895(02) فاكس: 5903395(02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5462090(03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675(050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

كلمـــة

[إن المقلدين للتمدن الغربي إنما يشوهون وجه الأمة، ويضيعون ثروتها، ويحطون من شأنها

إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب!!]

جمال الدين الأفغاني

كلمـــات

قديم هو ذلك الصراع بين أمتنا وبين الغرب الاستعماري.

■ فالقهر البيزنطي حلقة قديمة في سلسلته.

* * *

■ والحروب الصليبية قد مثلت حلقته الوسيطة.

■ والغزوة الاستعمارية الحديثة هي ذروة هذا التحدي التاريخي والحضاري الذي استهدف -ولا يزال- كيان أمتنا وذاتيتها وإمكاناتها..

■ وربيب هذه الغزوة الحديثة: الكيان العنصري الصهيوني، هو الشريك الأصغر في التحدي المعاصر الذي هو امتداد لهذا الصراع القديم"

* * *

ولقد تميزت المراحل القديمة في هذا الصراع الحضاري بوضوح الرؤية لدى أمتنا إزاء هذا الغرب الاستعماري الذي ما فتئ يقذفنا بحملات الغزو ومحاولات الإبادة وموجات النهب والاحتواء.

لكن الأمر لم يعد كذلك في ظروف صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة. لا لخفاء أهدافها وغموض نواياها، وإنما لما حملت معها من «فكر» كانت أمتنا في حاجة إلى كثير منه كي تنهض وتعوض ما فاتها في حقب الجمود والتخلف التي حكمها فيها وتحكم فرسان المماليك وسلاطين آل عثمان.. ولما تضمنه هذا «الفكر» من جوانب مثلت «عوامل استلاب» حاول بها الغرب الاستعماري -ولا يزال- احتواء أمتنا، وطمس معالم تمايزها واستقلالها، وتشويه معرفتها بذاتيتها.. وصولاً إلى تجريدها من طاقات الثورة في سبيل النهضة والاستقلال!

ولذلك وجدنا -ونجد- «الموقف من الغرب».. قضية من قضايانا الفكرية الخلافية.. على عكس ما كان عليه موقف أسلافنا الذين واجهوا هذا الغرب تحت أعلام الفتوحات العربية الإسلامية.. ومن خلف أبطالنا القوميين الذين مثل نموذجهم: الناصر صلاح الدين الأيوبي.. واجهوه بتمايز كامل وواضح في المواقع والمواقف، بلغ مرتبة تمايز «الكفر» عن «الإيمان».

بل إن خلاف حركتنا الفكرية حول الموقف من الحضارة الغربية كاد أن يصبح ثغرة عظمى تجعل بأس مفكرينا ومثقفينا بينهم شديداً، الأمر الذي يصيب طاقاتنا الفكرية بنزيف يسلم إلى الضعف والهزال؛ فبينما نجد:

■ «سلفية نصوصية» تسعى إلى معاكسة قوانين التطور، التى هى سنة من سنن الله فى الكون والمجتمع، وتجاهد لصب الحاضر والمستقبل فى القوالب التى صنعها «سلفها الصالح» فى عصور الجمود والتخلف تحت حكم المماليك وتحكم العثمانيين!!

■ نجد «سلفية نصوصية» «متغربة»، تسعى هى كذلك لصب حاضرنا ومستقبلنا فى القوالب التى صنعها «السلف الغربى»- بدءًا من اليونان القدماء، وحتى نهضة الأوربيين المحدثين!

وإذا كان الخيار الأول سيقودنا إلى «انغلاق» يقف بأمتنا عند «التخلف الموروث» الأمر الذى سيعجزها عن تقديم البديل وإبداع المشروع الحضارى الكافل لنهضتها وإفلاتها من قبضة الهيمنة الغربية، فإن الخيار الثانى سيقود الأمة إلى «التبعية» للمركز الحضارى الغربى، وهى تبعية يسعى إليها الغرب ويسمح بها شريطة ألا تتعدى إطار سلبيات وأمراض نموذجه الحضارى، الذى كاد أن يبلغ نهاية الطريق المسدود!

ولأننا نرفض الاستسلام لأى من هذين الخيارين، كانت صفحات هذا الكتاب الساعى إلى التبشير بطريق ثالث ومتميز فى هذا الصراع الدائر حول الموقف من الحضارة الغربية.

■ طريق التمييز - فى موروثنا- بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».

■ طريق النضال من أجل الحفاظ على نقاء الهُوِيّة الحضارية للأمة، فى وجه محاولات المسخ والنسخ والتشويه الذى تمارسه فكرية «التغريب» وتيار «المتغربين».

■ طريق فتح نوافذ العقل على مختلف الحضارات، من موقع الراشد المستقل، الباحث عن عوامل القوة، يدعم بها ذاتيته المتميزة ونهضته الحضارية المستقلة.. والرافض لكل عوامل الاستلاب لشخصيته القومية وللسمات التى ميزت حضارة أمته عبر قرون تاريخها الطويل والمجيد.

تلك هى الرسالة التى تحاول الوفاء بها صفحات هذا الكتاب عندما تعالج هذه القضية المحورية من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقسامًا ثلاثة في هذا الكتاب:

١- الاستقلال الحضارى.. وماذا يعني في النهضة المنشودة لامتنا..؟

٢- العلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامي وبين «الوافد» الغربى.

٣-نموذج تطبيقي لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية [الأزهر] موقفه من «التغريب».

فإذا نهضت هذه الصفحات برسالتها، فحملت ما قصدنا إليه إلى الباحثين والقراء كانت سعادة الكاتب الذى يحمل هموم أمته، ويناضل لتنوير طلائعها بمخاطر التحديات التي يفرضها عليها أعداؤها الكثيرون!

والله من وراء القصد.. وهو ولى التوفيق.

د . محمد عمارة

١

الاستقلال الحضارى

... مقدمات تمهيدية ...

منذ بدء الهجمة الاستعمارية الحديثة على ديار العروبة والإسلام، وضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدي، وتميزت عن غيرها من الموجات التى ابتليت بها أمتنا عبر تاريخها الطويل.

فهى لا تبغى فقط السيطرة على طرق التجارة الدولية.. ولا تقنع بالنهب الاقتصادى الاستعمارى.. ولا تكتفى بتفتيت وطن أمتنا، لتحول دون وحدتها، فقوتها، فنهوضها.. ولا تقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربى والإسلامى إلى «هامش أمن» للغرب الأوربى.

لا تكتفي هذه الهجمة الاستعمارية بكل ذلك.. بل إنها فى سبيل تأبيد جميع ذلك وتأبيده وتكريسه، سعت وتسعى إلى سحق شخصيتنا القومية الخاصة، ومسخ هويتنا الحضارية المتميزة، والحيلولة بين أمتنا وبين استعادة قسمات استقلالها الحضارى المفقود.. ورأت فى تحويلنا إلى «هامش حضارى» للغرب الضمان لبقائنا «هامشا» له فى الأمن والاقتصاد!

ومن هنا، وبسبب هذه الأهداف الاستعمارية تنوعت أسلحة الصراع، وتعددت ميادينه، فشملت ساحات: «الفكر» و«المادة»..

وخاصه: «المفكرون» و«العامة».. واستنفر «العلماء» و«الجند».. واحتاج إلى «القلم» و«السيف» عبر تاريخه الطويل!

ولقد استعان الاستعمار، فى صراعه مع أمتنا على الجبهة الحضارية، بعوامل كثيرة تدخل فى عداد «حيل الخداع والتمويه» النابعة من «غرور المنتصرين واستعلائهم على المهزومين»!

فهو قد جاء إلى بلادنا فعاجل الصحوة التى حاولنا بها الإفلات من ظلام العصر «المملوكي - العثمانى» وقيوده، واليقظة من سبات ليله البهيم والطويل.. صحوة النهضة المصرية التى قادها، بمصر والشرق، محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م].. وصحوة الثورة العرابية [١٢٩٨ - ١٢٩٩هـ = ١٨٨١ - ١٨٨٢م] التى طمحت إلى محو آثار الهجمة الاستعمارية على نهضة محمد على بعد سنة ١٨٤٠م!

وكانت حركة الاستشراق، فى مجملها وأغلبيتها، طليعة هذا الزحف الاستعمارى على جبهتنا الحضارية العربية الإسلامية.. وكانت هذه الحركة الاستشراقية أعلم منا، يومئذ، بتراثنا الحضارى، فألحت على عقل أمتنا ووجدانها بالمقولة التى تزعم أننا أمة غير متميزة حضارياً، فتراثنا العربي - كما قالت - فقير فى الخلق والإضافة والإبداع، وعقلنا العربى عاجز عن التفلسف والفكر المركب، وليس لأسلافنا غير فضل النقل والحفظ لتراث اليونان، والمحاكاة لتراث الفرس والهنود!

ولم يكن هدف هذه المقولة الاستشراقية هو فقط تثبيط الهمة وفل العزيمة، وخفض الهامة، وكسر النفوس، وإذلال النفس العربية الإسلامية بل كان الهدف أبعد من ذلك وأكبر وأخطر كان الهدف استخدام كل ذلك للوصول إلى مقولة ثانية تزعم أن التمايز الحضاري ومن ثم الاستقلال الحضاري هو في الأساس ومن حيث المبدأ محض أكذوبة لم تعرفها التراث ولم يشهدها التاريخ، ومن ثم فلا جدوى من جعله هدف نضال للحاضر والمستقبل فالحضارة واحدة وهذه الحضارة الواحدة هي الحضارة «الإنسانية» كانت قديما يونانية ثم «نقلها» العرب والمسلمون إلى الأوروبيين الذين أسسوا عليها حضارتهم الحديثة التي هي حضارة العصر «الإنسانية» الوحيدة، فأوروبا هي «المركز» كانت كذلك قديما وأيضا في الحديث

ومن ثم فما على أبناء الشرق إن هم أرادوا التحضر إلا أن يسعوا إلى اللحاق بهذه الحضارة الأوربية الغربية بحيث «يعقلون» و«يتذوقون» أشياء «أوربا» وواقعها وبحيث تصبح بلادهم قطعة من أوربا - كما نسب إلى الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ ١٨٣٠ - ١٨٩٥م] أن قال.

فالقضية في نظر أصحاب هذه المقولة هي اللحاق بمن سبقنا بإزالة التقدم في جانبه وبنفس السبل التي فرضها علينا بسيطرتهم الاستعمارية

ومن هنا كان التأكيد على «رؤية» و«تصورات» ... «مختلفة» عن «النموذج» ... حلا في نظر «المتخلف» الذي يجب التخلي عنه

و[illegible] [illegible] عندهم [illegible] [illegible] [illegible] و[illegible] في [illegible]
[illegible] تغيير [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] واقعه
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في العصر [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الصورة [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] الجديدة
من [illegible] والإسلام عن الخضرا

لقد أرادوا [illegible] الإسلام عن جوهره وسموا هذا الإسلام [illegible] و تحديث لأنهم رأوا [illegible] [illegible] أن هذا الجوهر الذي يمثل هوية الأمة هو قوة [illegible] المحركة التي ستحرك الأمة في اتجاه الاستقلال الحقيقي والتحرر من سيطرة الاستعمار

ولما كانت حضارة هؤلاء [illegible] هي حضارة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هذه في صفوف الأمة من [illegible] [illegible] ويبيض وجهها ويفتح لها في عقل الأمة النوافذ والابواب والثغرات ويمهد لها الأرض في [illegible] والقلوب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فكان أن تبلورت في حركتنا الفكرية ما عرف [illegible] [illegible] [illegible] الذي يقيم علاقة [illegible] [illegible] الأمة [illegible] [illegible] و[illegible] من [illegible] عصر [illegible] و[illegible]

وقد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] العصور المظلمة المملوكية العثمانية [illegible] الانخراط في موكب [illegible] [illegible] [illegible] عرب [illegible] الحضارة و[illegible] التجديد و[illegible] والإحياء [illegible] [illegible] الطريق [illegible] [illegible]

ولقد شهد على ... هذا العصر، وبخصوص ما كانت عليه المؤسسات والسلطات التي احتكرت لنفسها حق التحدث عن التراث [illegible] هذه المؤسسات مثقلا بالخرافة والبدع [illegible] وراثة عصور التخلف [illegible] لأنه لم يكن ابداع الأمة ولا عبقرية الأسلاف العظام وإنما كان حكايات عصر جمود هذه الأمة وتخلفها وتقليد للسلف الذي لم يكن صالحا!

فكان جمود هذه المؤسسات ومرجعية تراثها مما يدفع ويغري بسلوك طريق «التغريب»

لكن أصالة هذه الأمة الحضارية وعوامل الحيوية المستكنة في كيانها الحضاري قد سخرها هذا التيار الذي وضعت فيه شعوبها عندما تحدى غلبة الاستعمار فكان بروز الموقف الثالث وانتشار التيار الثالث تيار «التجديد الذاتي» الذي يمد جسور التواصل الحضاري مع كل حضارات الأمم الأخرى فيؤثر ويتأثر ويتفاعل ويأخذ ويعطي من موقع الراشد المتميز الذي لا يفقده التواصل الحضاري ما له من تميز واستقلال كما لا يدخله هذا التميز والاستقلال في عالم الجمود والعزلة المتحجرين الذين يفقدهم الانغلاق والاستعلاء

ومنذ نشأة تيار «الإحياء والتجديد» هذا، تصارعت على الساحة الفكرية لأمتنا هذه التيارات الثلاث

١- تيار الجمود:

ذلك الذي استعصم بفكرية العصور الوسطى واعتصم بجدار أضفى على هذه الفكرية التي حدثت عصر تخلفنا الحضاري قداسة الدين وقدسيته! ولقد تمثل تيار «الجمود» هذا في المؤسسات التقليدية العريقة، إلا قليلا من أعلامها، تمثل في عدد من شيوخ الأزهر والزيتونة وفي قوم زعموا أنهم «مجتهدون» رغم تسلفهم واستسلامهم لأسر تراثية ظلت تفعل فعلها في تقسيم المسلمين إلى «شيعة» و«سنة»! وكذلك تمثل تيار «الجمود» هذا في تشيعات «الطرق الصوفية» التي غرقت في البدع والخرافات والرسوم، وانقطعت صلاتها بالتصوف الحق، سواء أكان «عقلانياً» أم شرعياً تهذيبياً.

وخلف هذا التيار سارت «العامة» لطبيعة «الاستمرار» ورفضه «التغيير» وحرصه على «المألوف» وهبوط تصوراته العقدية إلى مستوى تصورات العامة والجمهور.

٢- تيار التغريب:

ذلك الذي بهر أهله تألق الحضارة الأوربية وتجاربها وانتصاراتها، خصوصاً عندما قارنوا بينها وبين نموذج «الحضاري» الذي يتمسك به تيار «الجمود»، فقد أن حسبوا لجهلهم بتراثهم الحضاري أن تصور أهل الجمود هذا هو حقيقة تراث أمتنا الحضاري، فدفعتهم هذه المقارنة إلى إدارة الظهر لتراثنا، وتولية الوجه والعقل والقلب إلى الحضارة

الأوروبية، مصدقين زعم الأوروبيين أن حضارتهم هي «الإنسانية»، ومن ثم «الواحدة» في العصر، وأن على من يريد العصر أن يلحق بها، ويذوب فيها ويصطبغ بصبغتها وسماتها فيفكر كما يفكر الأوروبيون، ويحب كما يحبون، ويتمثلهم في «المقاصد» و«الأدوات» على السواء!

ولقد تمثل تيار «التغريب» هذا – أساسا – في الأعلام الذين قلدوا الغرب بعد أن درسوا حضارته سواء منهم من درسها في عواصمها أو في المؤسسات التعليمية التي نشأت في بلادنا على نمط مثيلاتها في الغرب فلسفة ومنهاجا وسار خلف هذا التيار فريق من أبناء الأمة أعانهم الاستعمار على الإمساك بزمام التوجيه في «المدرسة» و«الجامعة» و«الصحافة» والمنتدى وكل أدوات التوجيه ومؤسسات التحديث.

٣- تيار «التجديد»

ومنذ ابتدأ عصر [illegible] العلاقة بين تياري «الجمود» و«التغريب»، فأهل «الجمود» يقدمون الدليل [illegible] كل يوم على عدم صلاحيتهم [illegible] كي تنهض بحضارتنا على النحو الذي يمكن الأمة من مواجهة ما تواجهه من تحديات [illegible] الأمر الذي يدفع فريق التغريب [illegible] إلى [illegible] وتشويه وعقيدة الذين عرضوا على الأمة هذه [illegible] العربية [illegible] الحضاري [illegible] صفحات [illegible] الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية و[illegible]

كي تمثل الروح الذي تنتمي به الأمة وهي تصنع حاضرها الراهن وتخطو نحو المستقبل المنشود.

ولقد تمثل تيار التحديث هذا في الأعلام الذين استوعبوا تراث الأمة ثم لم يحبسوا عقولهم في تفاصيل التراث القديمة التي عرفت بالتعصب لمقولاتها كما لم تدفعهم ثقافتهم التراثية إلى الغرق في القضايا القديمة التي شغلت الأولين بالجدل، والتي تجاوزها العصر، لأنهم رفضوا التقليد ... منهم مقاومون للتطوير إمكانية إعادة الحاضر أو المستقبل كي يصب في قوالب الحضارة التي صنعها الأسلاف. ثم إنهم لم يغلقوا عقولهم دون التيارات الحضارية الأخرى والتجارب الإنسانية التي ازدهرت وتزدهر خلف حدود العروبة والإسلام ودون الموازين الحضارية غير العربية الإسلامية فكانوا:

■ الانطلاق من تراث الأمة باعتباره طاقة تتحرك بها الكبرياء المشروعة التي تعينها على مواجهة التحديات المعاصرة وتحقيق مشروعها الحضاري الخاص.

■ المحافظة على القسمات والسمات التي تمثل البصمات الثابتة في شخصية هذه الأمة وحضارتها وخصوصية من كل منها دينا وصبغة الله أو روحا حضارية تتميز به هذه الأمة عن غيرها من أمم الحضارات لغة وثقافة.

■ التفاعل مع الحضارات الأخرى والإفادة منها دون تقليد يمسخ شخصيتنا الحضارية وإنما بما يمثل إثراء لذي الموقف المتميز والخاص.

لكن تيار التجديد هذا قد ظل حبيس الصفوة التي تمتلك زمام «الأصالة والمعاصرة» معاً ووازنت بينهما موازنة عادلة وخلاقة. وساعد على حبسه في هذا الإطار أنه قد حوصر وتلقى الطعن من تياري «التغريب» و«الجمود» كليهما لما مثله من خطر حقيقي على غربتهما ووسائلهما جميعاً.

* * *

على أن تيار «التجديد والتجدد الذاتي» هذا لم يكن عصبة واحدة متحدة في طول بلاد العروبة وعالم الإسلام منذ تميزت فيه «الفصائل» وتعددت «الحركات» وتنوعت الدعوات بسبب ما بين أقاليم عالمنا العربي وأمتنا الإسلامية من تفاوت في مراتب التحضر وتنوع في مستوى التحديات التي تواجه هذه الأقاليم واختلاف في المكونات الفكرية التي تركت بصماتها على الرواد في هذه الفصائل والحركات والدعوات.

لكن الحديث عن «فصائل» هذا التيار وعن علاقته بـ«استقلال» أمتنا الحضاري يستدعي أن نقدم بين يديه مقدمات تمهيدية لا غنى عنها لوعي كنه هذا التيار، وما يمثله لأمتنا من طوق نجاة مما يواجهها من تحديات.

▪ **وأولى هذه المقدمات نصها عنوان هذا الكتاب:**

ذلك أننا معشر يؤمنون بأن حضارتنا هي «عربية إسلامية» فهي حضارة أمتنا التي هي عربية قومية، وهي إسلامية لأن «الإسلام الحضاري» يمثل عبقريتها

، أيديولوجيتها المتميزة، فالإسلام الحضاري هو الرسالة الخالدة لأمتنا العربية الواحدة، تستوي في ذلك الشعوب التي يدينون بـ الإسلام الدين ... والذين يدينون بـ دين التوحيد ... سالكين الى هذا الدين شرائع ومناهج أخرى لرسل آخرين سبقوا محمد ﷺ على درب علاقة السماء بالإنسان.

ثم انها عربية ... إسلامية ... لما لأمتنا العربية من دور قائد في نشر الإسلام الدين ... والقيام على تجديده وفي قيادة الأمم الإسلامية لمواجهة ما تعرضه عليها الأعداء من تحديات ... كانت مهمتها تاريخيا ولا تزال قائمة بل وقدرا من أقدارها في عصرنا الحديث.

■ وثاني هذه المقدمات يتطلبها العنوان أيضا، فهو يعني أنه قد كانت للأمة العربية الإسلامية حضارة متميزة ومستقلة عن حضارات متميزة لأمم أخرى ... ثم فقدت ... هذا الاستقلال الحضاري، وغابت عن ساحتها وعاشت في ... من بنائها تلك القسمات الحضارية الخاصة التي ... حضارتها ... التميز ... الاستقلال ... هذه الشعوب ... وتحرك ... الإصلاحية والتيارات التجديدية -التي سنتحدث عنها- في العصر الحديث ... استعادة هذا الاستقلال الحضاري لأمتنا، بالكشف عن قسمات تمايزها الحضاري، وبلورة هذه القسمات أو تطويرها.

■ أما المقدمة الثالثة، فإنها تجيب عن سؤال نطرحه ليقول: هذه الحضارة المتميزة، ما خصائصها الرئيسية التي تميزها فتجعلها مستقلة أو متميزة عن غيرها من الحضارات التي كانت عبر هذه الدعوات والحركات المحسوبة عليها وهي تسعى نحو هذا الاستقلال الحضاري في عصرنا الحديث؟

ونحن إذا شئنا «تكثيف» الإجابة عن هذا السؤال أمكننا ذلك إذ نحن قلنا إن حضارتنا هي «حضارة التوحيد».

فلو تخيل المرء أن كل أمة من الأمم العريقة ذات الحضارات المتميزة قد «صاغت وسكت» لحضارتها «عملة» تميزها وصنعت ذلك أمكن لكتابة «عملتها» التي تميز حضارتها مرادفة برمز «التوحيد» على وجهيها: «التوحيد الديني» على أحد وجهي «العملة»، و«التوحيد القومي» على وجهها الآخر، والصلات بينهما، واتساق عن جعلهما وجهين لعملة واحدة ترمز لحضارتنا العربية الإسلامية «حضارة التوحيد».

ففي «التوحيد الديني» فلسفة هذه الأمة ـ بمعنى تصورها للكون ـ حتى لقد سمي العلم الذي تحدث عنه الفلسفي ـ وهو «علم الكلام» ـ بعلم «التوحيد».. وفي بهذا التصور التوحيدي للكون قد أفصحت عن أهم ما يميز حضارتها من قسمات.. لا وهي «قسمة التوازن والموازنة» بين المتقابلات والمتناقضات واتخاذ الموقف الوسطي العادل الذي يؤلف بين ما تحسبه غيرنا في حضارات أخرى غير قابل للتآلف من وجوه مؤاخذة

بين هذه المقالات نظرة شمولية تمثل الموقف الثالث الوسطي بمعنى العادل والرافض لكلا الموقفين المتطرفين الشطريين لأن كلا منهما قد جاء ثمرة لنظرة موحدة الجانب للحركة القاصرة التي لم تبصر سوى قطب واحد من أقطاب طرفي هذا الكون.

فالنظرة التوحيدية للكون هي التي رأت واحدا وحدة بين التوحيد الديني الذي يعني وحدة الخالق الإله وتفرده دون في هذا الكون الله سبحانه وتعالى وبين ما في الطبيعة وتعدديته من خصائص المادة تحقيق علة الأقطار وتعددية الأسباب.

وهي التي ورثت من التوحيد الديني الذي يقطع بأن الله هو خالق هذا الكون ومن تصور هذا تقدم لديه ومن ثم فقول فلاسفة الإسلام وعلماء متكلميه [illegible] فلم تشهد حضارتنا ذات الإسلام الذي جعل الفلاسفة بقدم العالم مع تدبير الله [illegible] الخلق الإلهي المبالغين كما حدث في التراث الفلسفي للحضارة الأوربية وفي مرحلة فلسفتها الحديثة من لقد طورت حضارتنا ما يمكن أن نسميه [illegible] التوحيدية وكان فلاسفتها وعلماء متكلميها [illegible] موحدين [illegible] بين الخالق الطبيعة [الحقيقة] وفي ذات الوقت يقول لطبيعته وقوانينها [illegible] من فعل وتأثير

وهذا التوحيد الديني هو الذي صنع حضارة [illegible] استمرارية وتقارب بين الإنسان وبين الكون المحيط

[illegible] العربية [illegible]

بين «الفرد» و[illegible] والمجتمع [illegible]

«الدولة»، [illegible] الحضارة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

والتجربة [illegible] في [illegible]

هذه [illegible]

«الوحدة» ولا [illegible] في [illegible]

عن الحضارات الأخرى.

[illegible] وبين الآخر [illegible]

[illegible] حضارات الأعراق في [illegible]

[illegible] والانقطاع [illegible] الأخرى [illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible] الذي [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible]

وما [illegible]

و[illegible]

[illegible]

كما يقول شاعر الإسلام حسان بن ثابت [٥٤ هـ - ٦٧٤ م]

وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها الإمام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م] عندما يقول:

«إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن، إن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين»[1].

وهذا «التوحيد الديني» هو الذي وازن بين العقل وبين النقل والوحي». فلم نشهد في حضارتنا الصراع الذي يرفض أحدهما فيه الآخر، على الأقل عند جمهور تياراتنا الفكرية.. كيف كان العقل هو سبيل الإدراك للألوهية والنبوة، وكيف كان مع النقل والوحي سبيل الاستدلال في الدين.. الأمر الذي جعل الفلسفة الدينية على حق في تفلسف الدين!

وهذا التوحيد الديني هو الذي وازن بين الثوابت الدينية التي كملت بها من العقائد الدينية والعبادات.. والتي مثلت في شئون الدنيا أطرًا وغايات ومقاصد ومبادئ وكليات وقيمًا.. ووازن بين هذه الثوابت الدينية وبين المتغيرات الدنيوية التي جعل بها العقل

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٣٥ طبعة القاهرة [illegible]

الأساس يدمج فيها خلقه وتطويره وفق مصلحة وفي ضد [illegible]
وطرد وكنيسة، خفيف متسقة تشريعه في شكل مصلحة الأمة جمعاء
وسد ها ولحمتها[1]

وهذا التوحيد الديني هو الذي عمق [illegible] الشريعة [illegible] فقط
«الكتاب» بل وسعه [illegible] الذي هو [illegible] و[illegible] و[illegible]
العدالة [illegible] موضع في ممارسة وتطبيق [illegible] [illegible] الأساس
[illegible] بغير [illegible] [illegible] بالمعروف [illegible] الذي [illegible]
بالحق و[illegible] أو[illegible] [illegible] له من كتاب و[illegible] [illegible]
سكم[2]

هكذا وعلى هذا النحو كان أمر «التوحيد الديني» [illegible]
لفلسفة الأساس [illegible] وكمدرسة لأمة وجامعة [illegible]
الكون، و[illegible] على هديها الوجود الإنساني والاجتماعي
والسياسي

وهكذا كان هذا التوحيد من [illegible] عملة [illegible] المدرسة الإسلامية

* * *

أما التوحيد الآخر للبلاد العربية [illegible] فهو التوحيد القومي

ذلك أن [illegible] العرب في [illegible] [illegible] كانت تعيش [illegible]
لأنها في [illegible] كانت تعدي وتجسد غياب وحدة الهوية [illegible]
[illegible] العربية [illegible] التوحيد الديني [illegible] هو [illegible]

(1) [illegible]
(2) [illegible]

العربية، ليسهم في وحدة هذه الأمة في ... الشريعة والدولة.

ومن هنا كانت العروة الوثقى بين «التوحيد الديني» و«التوحيد القومي». وكان كل من أحدهما من الآخر هو بمثابة الوجه الثاني من وجهيه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[1]، ﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[2]. فكان هذا «التوحيد الديني» في «التوحيد القومي» هو - كما يقول القرآن الكريم - آية من آيات الله ومعجزة من معجزات الإسلام.

ولقد سارت الجماعة العربية على هذا الدرب، فتوحدت القبائل في كيان قومي واحد، أصبحت الدولة العربية الإسلامية صورته وإطاره، ونبع من ارتباط التوحيد القومي بالتوحيد الديني أن الأحداث التي تعرضت فيها وحدة الدولة للمدينة حقا لفتنة عريضة «الردة القبلية»، كالتي كانت إبان خلافة أبي بكر الصديق [٥١ق هـ - ١٣هـ = ٥٧٣-٦٣٤م] ممن خرجوا عن وحدة الدولة القومية، رغم بقائهم متمسكين بالدين، لأن «وحدة الدولة القومية» غدت حقا من حقوق شهادة «التوحيد الديني» لا إله إلا الله!

(1) آل عمران: ١٠٣.
(2) الأنفال: ٦٣.

وبعد عصر الفتوحات كان «الاستعراب» القومي لسانا [لغة] وثقافة وحضارة السبيل لاتساع دائرة «الأمة» القومية فامتزجت القبائل والشعوب واختص «الإسلام الموروث الحضاري» لهذه الشعوب فكانت الأمة الواحدة والحضارة الواحدة الجديدة. تبلورت الأمة بالاستعراب، وتبلورت الحضارة في عصر التدوين

ولقد تميزت هذه العملية التوحيدية القومية بما تميزت به حضارتنا من «الموازنة والتوازن» بين المتقابلات والمتناقضات فاتخذت الموقف «الوسطي والعدل» موقف «الشاهد» على المواريث الحضارية القديمة الذي يعمل في الحكم على صلاحيتها كي تدخل في نسيج الحضارة المستقبلة ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾(1) كذلك اتخذت هذه العملية التوحيدية القومية هذا الموقف «الوسطي العادل» عندما وازنت بين «المواريث الحضارية غير العربية» وبين «كتاب الإسلام» المتعلقة بأسباب تبلورت فيهما «الإسلام الحضاري» وعندما وازنت بين «فضائل» مختلف الجماعات والشعوب والأمم التي أدخلها الفتح في إطار الدولة الجديدة فجمعت من كل هذه الفضائل قسمة في الحضارة الشابة تتميز بها الأمة الوليدة. رافضة غلو التطرف وحصر عصبية العرب الجاهلية العرقية وتعصب الشعوبية ضد كل ما هو عربي. وهي، أيضا قد وازنت بين مركزية [illegible] الخلافة

(1) البقرة ١٤٣

وبين الظواهر والمقولات وتنوع المجتمعات والأمم فك
الاسهام العلمي والتنوع في ابناء الحضارة في [illegible] والعصر

ولقد كان المنهج الذي صنعته الأمة واسعة عقلها طريقاً لصنع انجازها الحضاري المتميز هذا كان منهجاً هو كذلك بهذه الفلسفة المتميزة التي لا نجد نظيراً لها ثم قد نهضت نهضتها على فلسفة حضارية ونظرت بحضارتها ونظريتها في مواريث اليونان والفرس والهنود ثم احتذت وانتقت موقع الراشد في الموقف المتميز علم بحوثها الى يونان وفرس او هنود وانما صار محرك انجازي عربي اسلامي متميزا وكم تميزت متميزة، فلقد تميزت الأمة في المنهج عندما لم يقف عند التصور الفلسفي والفكري، فقد كان حال القياس عند اليونان وعندما لم يهمل النظر الفلسفي والفكري مكتفياً بالتجريب الذي يفارقه ويفتقده موحدة لحظ والصورة وربما وراء بينهما، فكان أن تبلور المنهج الاستقرائي القائم على الملاحظة والتجريب والاستخلاص الفكري ثم العودة الى التجريب، فالفكر النظري وهكذا وفي هذه الموازنة المنهجية بين المادة والفكر لم يعد العالم المادي ظلا لعالم المثل كما كان الحال في الحضارة اليونانية وفي نظرية المثل عند أفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق م] كما لم يصبح «الفكر» مجرد انعكاس لـ«المادة» كما هو الحال في «المادية الغربية» التي صعد عليها نهج اوربا في العصر الحديث وانما كانت العلاقة الحميمة بين «الفكر» و«المادة» على النحو الذي نسمح به فلسفة

الإسلام جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] عندما يقول إن كل شيء يحدث «فكراً» وكل «فكر» يكون له أثر في «دعوة» تدعو إليها وعن كل «دعوة» ينشأ «عمل» ثم يعود من «العمل» إلى «الفكر» دور يتسلسل ولا ينقطع الانفعال بين «الأعمال» و«الأفكار» ما دامت الأرواح في الأجساد. وكل قبيل هو للآخر عماد: آخر «الفكر» أول «العمل» وأول «العمل» آخر «الفكر»(1).

هكذا تميزت حضارتنا عندما أصبح «التوحيد» هو روحها العميقة: في النظر إلى الكون وتصوره، «التوحيد الديني» وفي صياغة المجتمع والدولة وتصور [illegible] وعلاقتهما بهذا الإنسان، وإن في الأبعاد [illegible] الذي استقر به الإنسان العربي عن ثورة هذا [illegible] فالتوحيد يعني «التوازن» كما [illegible] و«التأليف» و«التوفيق» و«الوسطية» تعني في جوهر الانحياز إلى التوحيد.

• [illegible] هذه المقدمات التمهيدية [illegible]

متى فقدت حضارتنا هذه استقلالها؟ وبم [illegible]

أما [illegible] فقد فقدت خاصيتها أي [illegible] الوسطي المتوازن [illegible] توحيدها بالتمزق والانقسام.

وأما متى؟ وكيف حدث ذلك؟ فالرأي عندي أن [illegible]

(1) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ج١ ص ١٤١ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.

[illegible]

لقد كان عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م] رضي الله عنه [illegible]

[illegible]

لكن عثمان بن عفان [٤٧ ق هـ - ٣٥هـ / ٥٧٧ - ٦٥٦م] رضي الله عنه لم يحبسهم [illegible]

ففي عهده خرجوا إلى البلاد [illegible] وراوا الدنيا، ورآهم الناس [illegible]

[illegible]

على أن العصر العباسي كما أشرنا قد بدأ يعتد بالعنصر العربي في حماية الخلافة وجيوشها، فقد غدت الأمة قسمة متوازية بين القوة وبين الفكر، وحركة جنود الدولة من العنصر العربي لميله إلى العلويين من آل البيت ونصرته لثوراتهم التي كان مقرها الأرياف، وكانت الشعوبية المدفوعة بالثأر ضد الدولة العربية والمتحولة إلى مؤامرات المجوسية ضد الإسلام تسعى لتقويض الدولة وإفساد «الدين». فما كان من الخليفة العباسي المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧هـ = ٧٩٥ - ٨٤١م] إلا أن خطا الخطوة الفاصلة عندما جرد الدولة جندها وقوتها الضاربة من العرب بعد أن سلب العرب عن حضور الأمة بحكم العنصر الفارسي والسادة والتكوين وتدبير لا يشكو ولا عقلانية حضارية، بحكم كونهم عسكراً فضلاً عن كونهم مماليك، على أن أصبحت هذه المؤسسة العسكرية غريبة عن الروح الحضاري للأمة تحولت أمر حضور العقل بين سور الروحية. كفة «القوة» على كفة العقل، فكان إعلان المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧هـ = ٨٢١ - ٨٦١م] الردة عن تبني العقلانية الذي تبنته الصفحات المشرقة للحضارة وجعلت من العقل «ظواهر تعلي» عسكرة للفكر، وعسكرة جهادية للعقل النسبية والمحسوسة المقتصرة على المحسوس وعن ... يرجحون علوم الآخرة على علوم الدنيا.

على أن العصر تسلط العسكر المماليك وتحولت دويلاتهم على مقر الخلافة وقد استقلت ... في عصر هذه الدولة وتحكم في

فتصدت لذلك المد الصليبي الزاحف من أوربا، ثم جاءت قسمة العروبة من حضارتنا وظهر ذلك التناقض الذي زعموه بين الإسلام والعروبة كمحاولة لإقرار الرباط النسبي الذي تحققه حاكمون محكومون وتغيير رباط القومي الذي يستنفر المحكومين كي ينهضوا فيستقلوا عن كاهلهم ذل السلطان الغريب عن قوميتهم... فقدت حضارتنا وجهها المتميز وغابت القسمة الموروثة والتي طبعت هذا الروح فكرا ... مرحلة التراجع فالجمود تلك المرحلة التي تدعمت بالسيطرة العثمانية على أغلب أقاليم العالم العربي واستمرت حتى ظهور حركة التجديد والنهضة في عصرنا الحديث والتي كان غاية كل تستعيد لحضارتنا استقلالها، أن تبعث وتطور القسمات التي ميزت هذه الحضارة وصنعت لها هذا الاستقلال وعلى رأس التجديد قسمات

أ- السلفية الدينية

تنقية لها من الغشاوات الدخيلة وركام البدع والخرافات والرواسب والإضافات التي تراكمت عليها في عصر الجمود المظلم وتعيد بها إلى الدين جوهره الأهم وروحه الأعظم وهو «التوحيد الديني» في العقائد والعبادات، ومن ثم تعيد إليه طاقة الفعل والخلق والإبداع على الجبهة الحضارية

انظر في تفصيل ذلك كتابنا الإسلام والعروبة والعلمانية طبعة بيروت سنة ١٩٨١م

ب- الاستنارة والتمدن:

في شئون الحضارة وعمران الدنيا وصنع التمدن والعمران، حتى تستطيع الأمة فتح نوافذ عقلها على الحضارات الأخرى وتجارب الأمم التي تقدمت، وتفتح عقلها فتتمكن من التمييز بين تراثها الخلاق المحرك لملكاتها المبدعة والباعث لإمكانياتها الخلاقة، وبين تراث عصر التراجع والجمود، الأمر الذي يعينها على الموازنة بين «ماضيها» وبين «العصر» الذي تعيشه و«المستقبل» الذي تفكر فيه.

ج- عروبة السلطة

في المجتمع، حكومة، وولاة، وجيشا، وتقنينا، وثقافة وتشريعا، حتى تضمن استمرار العقد وخروج الأمة من حقبة «التوحيد» هو مزاج التميز لحضارتها في عصر الازدهار.

وبقدر نجاح حركات التجديد والنهضة ودعوات الإصلاح في تبني أدوات التجديد هذه واستخدامها بكفاءة واقتدار كان نجاحها في التعبير عن طموح الأمة لتجاوز عصر توقفها الحضاري، والدخول بمشروعها الحضاري المستقل عصر النهضة والإحياء.

دعوات التجديد السلفية
واستقلالنا الحضاري

بدء نهضة أمتنا في عصرها الحديث بظهور حركات السلفية التي رمت تجديد الدين وصبغ المجتمع بصبغة هذا الدين بعد تجديده. وكان «تدين» حركات التجديد هذه – أي اتخاذها الدين سبيلا للبعث القومي والحضاري – التعبير التلقائي عن مكانة الإسلام ودوره في أي مشروع لانتهاض هذه الأمة وتجديد حياتها.

ومنذ البدء كان واضحا أن هذه الدعوات والحركات التجديدية السلفية تواجه خطرين رئيسيين وعدوين أساسيين:

أولهما:

«التخلف» الذي صنعته وكرسته فكرية العصور الوسطى المظلمة، فكرية عصور تسلط المماليك وسلطان العثمانيين – «التخلف» عن جوهر الإسلام وحركته الحيوية وطاقته المبدعة – عقيدة كان هذا الإسلام، وشريعة.. فلقد حلت تلك العصور محل الإسلام الحق نسقا فكريا مثقلا بالشعوذة والخرافة والسلبية والتواكل بعد أن أضفت على هذا النسق قداسة الدين

وتشويهها

[illegible] تقدم [illegible] تستحق به [illegible] الاستعمار [illegible] في [illegible] الحديثة على ديار العروبة وعالم الإسلام [illegible] التي [illegible] تهدد مقدرات الأمة واحتلال أرضها وطمس شخصيتها القومية وإزالة [illegible] الحضارية كي تصبح [illegible] لا دور لها في [illegible] او الامر او الحكم [illegible] وفقدان الحضارة بوجه عام

ومن بين الدعوات والحركات [illegible] التي [illegible] الأمة على وقع [illegible] كانت [illegible] و [illegible] و [illegible] ومن هذه الدعوات والحركات [illegible] وهي وإن جمعتها غايات التجديد والإصلاح على [illegible] الا [illegible] مختلفة [illegible] تكشف [illegible] من [illegible] و [illegible] ظروف الواقع [illegible] والتكوين على [illegible] و [illegible] و [illegible] واستدعته [illegible] التي وجهت هذه الدعوات والحركات في البيئات المتميزة التي نشأت فيها

١- الوهابيــة

في بيئة بدوية بسيطة هي نجد، بشبه الجزيرة العربية ولدت وهابية محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م]

وكانت بساطة البداوة وبساطتها على موطنه بحيث لم يعرف عقائد، وكان من عقائد هذه الدعوة سبيل شرك من عقيدة حتى عليهم عقود الناس كما رأى على عقائد مكة والمدينة وظهور نزوعه المبكر **إلى النهج السلفي** اعتراضاً على ما طرأ على عقائد الإسلام وعباداته من بدع وخرافات وإضافات.

لقد نظر ابن عبد الوهاب فوجد عامة الناس يتخذون من الوسطاء والوسائط شفعاء إلى الله يتوجهون إليهم بالقصد والدعاء والاستعانة في الملمات كما وجد البدو قد أصابت العقائد تربيتهم وبساطتهم فلما عرض صورة الإسلام بعقيدته هذه على حقيقة الإسلام السلفي وجد أن الإسلام الأول إسلام السلف قد أصبح غريباً فكان أن وجد نفسه في ذات الموقف الذي وقفه إمام السلفيين القدماء الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] عندما دعا إلى العودة لإسلام سنة

لحريوه الأولى للإسلام ما قبل عصر الفتوحات وما [illegible] تكفي لاستيعاب ظواهر النصوص، ونظرا لحاجة إلى العقلانية الكلامية والفلسفية وقد نفر من [illegible] والرأي والتأويل

وكانت سمة نجد البسيطة كل ملاءمة للإسلام السلفي البسيط بظواهر النصوص تكفي للإجابة عن علاقات ساكنيها البسيطة كما تكفي لتصحيح معتقداتهم وتصوراتهم وإعادة عباداتهم إلى صفاء الإسلام [illegible]

فكان ابن عبد الوهاب يدعو إلى الإسلام السلفي ويستلهم فكر ابن حنبل، وابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] ويركز على إصلاح العقائد وتقويم التصورات وتصحيح العبادات، فحكم بالشرك الظاهر والجلي على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز، بل رأى أن شركهم هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى[٣] وبعض - كما صنع أعلام السلفية الأولى[٤] - يحتكم لظاهر النصوص [illegible] حتى لو كانت صحيحة، وعرض عن [illegible] في فهم النصوص وتفسيرها، وعن الرأي الذي لا ورود له بجانب النصوص

١ انظر [illegible] ١٩٦٣م [illegible] ١٩٦٩م [illegible] ١٩٨٩م

٢ [illegible]

٣ [illegible] ٨٧

٤ عبد الكريم [illegible] ص ٩٢ [illegible] ١٩٩٠م

وكان [illegible] محمد [illegible] سبقه بفكره [illegible]

[illegible] لم [illegible] عنه

ولم يقف مرشد الصادد عند الجمود بفكرته فلم يكن من

عند الوهاب اكثر من [illegible] واعظ من فقهاء [illegible] وكثير من

دعاته ومن ثم فانه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها

أو مواعظ يلقيها أو مذهب فقهي ينشره أو حتى حلقة من

الأتباع والمريدين لقد رأى أن تكون لدعوته دولة تحمل

بها التطبيق والانتشار والاستمرار فالله يزع بالسلطان ما لا

يزع بالقرآن [illegible] وقد زاد هذا الفرد [illegible] من احتمالات

التصادم ومن [illegible] مع خلفاء آل عثمان

[illegible] من عبد الوهاب [illegible] التي [illegible] دعوته [illegible]

[illegible] على [illegible] أحمد [illegible]

الذي [illegible] الدعوة [illegible] [[illegible]

الله] [illegible] الشرك [illegible]

[illegible] الله [illegible] واعرابه [illegible]

[illegible] عبد الوهاب [illegible]

[illegible] لا [illegible]

تقربهم بزعمهم [illegible]

[illegible] [١٢ هـ ٦٣٣ م] [illegible]

ابن عبد الوهاب [illegible] امير

[illegible] عن الاسلام [illegible]

[illegible]

فخشي [illegible] عاقبة [illegible] أن عبد الوهاب [illegible] حوفاً على حياته فغادر العيينة إلى الدرعية سنة [1158هـ - 1745م]

وفي [illegible] عبد العزيز بن [illegible] محمد بن سعود [1179هـ - 1765م] [illegible] الدعوة السلفية [illegible] نجد [illegible] فرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام [illegible] في [illegible] [illegible] حتى على خليفة المسلمين العثماني.

وكان [illegible] في خلافة [illegible] سعود [illegible] كربلاء [illegible] على [illegible] والمنطقة [illegible] سنة [1216هـ - 1801م] ودخلوا المدينة المنورة سنة [1220هـ - 1805م] وأزالوا [illegible] في مقابر البقيع، وفي [illegible] سعود [illegible] مكة [illegible] [illegible] الدولة [illegible] وهكذا [illegible] السعود والسلطة [illegible] على الحرمين [illegible] [illegible] العثمانية والفكرية [illegible] بالسعود [illegible]

لكن العثمانيين [illegible] في مواجهة [illegible] استعانوا بمحمد علي باشا وإبراهيم المصري الذي [illegible] الدولة الوهابية [illegible] عليها [illegible] الدرعية في [illegible] ذي القعدة

سنة ١٢٣٣هـ - ٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م] بعد ستة [illegible] من
القتال. وبعد [illegible] على ظهور [illegible] ابن عبد
الوهاب، ونصف قرن على [illegible] الدولة حتى
تيسر لها [illegible] الدولة [illegible] على
يد [illegible] عبد العزيز [illegible] [١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ ١٨٧٦ -
١٩٥٣م]

■ كانت الوهابية على جبهة التجديد والتحرر [illegible]
حركة تجديد سلفية [illegible] في بيئة عربية بسيطة لم تعرف الفكر
المركب [illegible] من مخلفات الحضارات [illegible] الفكرية
المركبة فكانت صورة إسلامها هي صورة الإسلام العربي الأول
في عصر صدر الإسلام. ومن هنا كانت ثورة تجديدية ضد
صورة الإسلام العثماني [illegible] الذي أثقلته البدع والخرافات طوال
العصر الذي فقدت فيه حضارتنا [illegible] الإبداع والسمات
الاستقلالية. وكان التوحيد الإسلامي الخالص كما بشرت به
الوهابية، إسهاما في إعادة روح العصر والاستقلال [illegible]
الحضاري لأمتنا على جبهة الفكر والاعتقاد [illegible]

■ والوهابية، كامتداد للفكر السلفي الرافض لتأثيرات الفلسفة
اليونانية في حضارتنا، قد تبنت إبداع أعلام السلفية [illegible]
ابن تيمية [illegible] في صياغة منطق إسلامي متميز [illegible]
[illegible] المنطق الأرسطي الذي تبناه عدد من فلاسفة المسلمين
أو تأثروا به [illegible] هذه [illegible]
[illegible]

استقلالية تبلورت وتجسدت في إبداع الإمام الشافعي محمد بن إدريس [١٥٠ - ٢٠٤هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠م] في أصول الفقه التي قدمها في مقابل منطق أرسطو الذي رفضه باعتباره بنت اللغة اليونان، يستحيل أن تكون منطقاً لأهل اللغة العربية. وتمثلت هذه الجهود بإبداع المتكلمين المسلمين من المعتزلة وغيرهم للأصول الخمس لعلم الكلام التي رفضوا فيها منطق أرسطو لارتباطه بالميتافيزيقا اليونانية الوثنية التي لم تعرف الوحي ولم تعترف به، والمخالفة لإلهيات المسلمين والإسلام.

ولقد توج ابن تيمية هذه الجهود التي تعمل على تحرير التفكير والاستقلال الحضاري بنقده لمنطق أرسطو الذي رآه معيقاً للعقلية الإسلامية بقوالبه صناعية متكلفة [illegible] الكلية الثابتة دون الوفاء بالحاجة الإسلامية المتغيرة، وهو حلا عقيم لا ضرورة له، حيث لم يشتغل به الصحابة ولا الأئمة. ومع ذلك فقد توصلوا - كما يقول - إلى كل ما حتى العلم. توجت هذه الجهود بتبلور منطق الحضارة العربية الإسلامية الاستقرائي القائم على الملاحظة والتجريب في مقابل منطق أرسطو القائم على المنهج القياسي والنابع من روح الحضارة اليونانية التي لم تحفل بالتجربة بقدر ما ركنت إلى النظر الفكري والفلسفي.

وعلى هذه الجبهة الفكرية كانت الوقفة [illegible]

(١) د. علي سامي النشار [مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي] ص ١٨٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٦٣، [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

السلفي سيهيمن في الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية ولن تكون بداوة بيئتها، وفقر الفكر الفلسفي عند أعلامها قد جعلا إسهامها على هذه الجبهة متمثلا في رفض التبعية الفكرية، مع العجز عن الإبداع في بنية التدبر وتطويره.

■ وعلى جبهة العروبة، كانت الوهابية إسهاما في انبعاث المبدأ كي يستعيد الأمة هذه القسمة من قسمات استقلالها الحضاري فهي «كدعوة» و«كدولة»، قد مثلت طليعة التحديات العربية للسلطنة العثمانية المتسلطة على أغلب أقاليم الوطن العربي. ثم هي، في المجال الفكري قد جددت ... الإسلامية لشرعية والمشروعية عن ولاية العثمانيين على العرب. فمنذ تيمية وابن ... موقف أغلب فقهاء الإسلام ... وسبهم فقهاء السلفية ... المتأخرين لضرورة توافر شرط العروبة فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام.

لقد مثلت الوهابية ... لموقف الفكري والعملي في يقظتنا الحديثة بعد قومنا لم تصل بنا إلى حد جعلها حركة قومية عربية بالمعنى المتعارف عليه في الأدب السياسي الحديث، لكنه مثل سهما بارزا على درب العروبة الساعية كي تنفض عن كاهلها سلطة الدول العثمانية.

■ ... الوهابية ... موقف ... من «العقلانية» ومن ... فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره ... لتدوينة ... مشكلات وما تطرحه من علامات استفهام ومواريثها السلفية، التي

[illegible] الفلسفة [illegible] في [illegible] العقلانية [illegible]

[illegible] العقلانية اليونانية [illegible]

[illegible]

[illegible] العربي الذي [illegible] إلى عالم الإسلام [illegible]

التي فتحها العرب في حدار آل عثمان

ولقد دفع الوهابية على هذه الحرب [illegible] في هذا [illegible]

خلطها الشديد بين ما هو [illegible]

[illegible] يتحقق [illegible]

فدعوا إلى [illegible] كما دعت إلى [illegible]

وغفلت عن [illegible] ثوابت [illegible] الابتداع [illegible]

المقاصد [illegible] والأمر العامة التي [illegible] الأمس على

الرسول عليه الصلاة والسلام [illegible] الوهابية أن «الاتباع

[illegible] لا يتغير» [illegible] يؤدي إلى الجمود

ولقد تحدث الأستاذ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ -

١٩٠٥م] عن [illegible] في الدعوة [illegible] رغم اتفاقه

معها في [illegible] التي [illegible]

على طريقة السلف [illegible] الخلاف [illegible]

[illegible] الإمام محمد عبده [illegible]

تصور الوهابية على [illegible] العقائدية [illegible]

[illegible] وأخرج [illegible] من [illegible]

كثيرا من البدع [illegible] عن الدين كثير [illegible]

[illegible]

منه. لأنهم يرون وجوب الأخذ بما يفيد من تقدم ثورة وتنفيذه دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها تدبير وليس كأمس البعيد ولا أصلح من تحت النبوة قد يكونوا تعلم ولداء ولا للمدنية حياة.

* * *

في هذه المرافئ، وعند هذه الحدود، وقفت ... على جبهة ... اسسا لاستعداد استقلالها الحضاري، ونهايته في عصرنا الحديث.

لقد استعصت الفلسفة ... و ... لكنها تخلفت عن مستويات ... بناء الحضارة على جبهة «الفكر» عندما استبدت على هذه الجبهة ... فلسفة ... «مستقلة» ابداعا وتمدنا ... موقف ... الفكر في الفكر عند حدود ... في ... ونموها وعجزت عن ... الإسلامية المتحضرة ... الفكر المركب والتطور الحضاري المتفرد.

(١) نفس المصدر ج٢ ص ...

٢ - السنوسية

يعتبر مؤسس تنظيم السنوسية محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ = ١١٨١ - ١٨٥٩م] من سادات محمد بن عبد الله، ولد السنوسي بقرية الواسطة بالقرب من مستغانم بمقاطعة وهران بالجزائر في بيئة عربية لا تغلب عليها البداوة.

وكان طموحه في العلم والفروسية ملحوظًا منذ النشأة المبكرة عند الصبي كان يقسم يومه إلى قسمين أحدهما لطلب العلم والآخر للفروسية والتدرب على فنونها. وهو قد درس في القرويين بمدينة فاس المغربية والأزهر بالقاهرة وانخرط في عدد من طرق المتصوفة وتلقى العلم على عدد من شيوخ مكة والمدينة.

وكان السنوسي مالكي المذهب في الفقه وجمع بين الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ = ٧١٢ - ٧٩٥م] وبين العقلانية ما بين أحمد بن حنبل والمنهج العقلي من خلال رؤية غير عادية من قصد العلمية والتصوف كوّن السنوسي طريقته، وشرع يبث الدعوة وينصب الدعاة.

■ ولقد كانت سلفية السنوسية متميزة لذلك عن سلفية الوهابية فهي تشترك في الدعوة إلى عقيدة التوحيد لتحرير الناس وفي رفض فكرة السلطة الغيبية لما لحق إسلامها من خرافات وزوائد وبدع لكن الطريقة السنوسية قد مزجت «الشريعة» بشيء من «التصوف» وخطت الطريق «للإشراق» فهي «بالشريعة والبرهان» تحدد الدين عقيدة تعود إلى منابعه كي تفهم عقائده وشعائره وشرائعه، وهي «بالتصوف» تستعين على تربية النفس وتقويم السلوك وصقل الملكات وسمو الوجدان. فضمت بذلك نموذجا متميزا ملحوظا إلى «الشريعة والبرهان»!

ولقد انحدرت السنوسية على هذا الدرب انحدارا عظيما فهي قد صححت عقائد الذين انحرفوا فيها من الأتباع والمريدين وكثير منهم، وخاصة في الصحراء المغربية، كانت تشوب عقائدهم الإسلامية، بل تغمرهم، عناصر وثنية وجاهلية عديدة، وهي قد نشرت الإسلام بين أقوام أفريقية كثيرين كانوا وثنيين فقطعت الطريق على التبشير الاستعماري الذي كان يمهد بالمسيحية الأرض للنهب والاحتلال والاحتواء. ولقد كان لها الفضل في صنع «الحزام الإسلامي» الممتد في وسط أفريقيا من شرقها إلى غربها، وإقامة سلطنات وإمارات إسلامية عدة حاربت الاستعمار الغربي وعاقت سيطرته سنوات، وصمدت بذلك أيضا عندما تصدت للاستعماريين الإيطالي والإنجليزي على الجبهة الشمالية وعندما قلقت السيطرة الفرنسية على بلاد الشمال الأفريقي

ولكن هذا تحررا هاما واستلهاما لتراث استغرقت السنوسية في صنعه فلسفتها المجددة تلك التي واجهت بها حركة عصر الجمود وخطر المد الاستعماري على هوية الأمة واستقلالها الحضاري

■ وعلى جبهة «العروبة» - عروبة «الدولة والفكر والحضارة» - أسهمت السنوسية إسهاما بارزا وملحوظا فهي قد شاركت الحركة الوهابية في نشرها الإسلام في أصقاع جديدة وهي قد رفضت الاعتراف بشرعية التسلط العثماني على حكم الأمة العربية، عندما تبنت وابرزت موقف فقهاء الإسلام من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها ومن كتاب السنوسي [الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية] يدافع عن هذا الشرط من شروط الخلافة ويستشهد برأي أبي الحسن الماوردي [٣٦٤ - ٤٥٠هـ = ٩٧٤ - ١٠٥٨م] ويرفض رأي الذين يشيعونها في غير العرب من المسلمين.

ثم إن السنوسية السياسية قد تحدث من الدولة العثمانية موقفا يتراوح ما بين الصمت الحذر والمراوغة والعداء فهي قد رفضت صلاتها ضد الاستعمار الغربي على فريقيا وقلقت الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي خاصة في الجزائر حتى لقد كتب وزير خارجية الفرنسي جبرييل هانوتو G Hanotaux [١٨٥٣ - ١٩٤٤م] وهو يتحدث عن السنوسية الإسلامية تعبير عن الرعاية من كف - نفسه يسعى ضد الأوربيين والكراهيتهم للمدنية الأوربية

وصرح بأن موقفهم غير الودي من الدولة العثمانية وتطلعهم لها ستسهل الأمر هدد الدولة وبين أوربا من

علاقات ... وعبر عن مخاوفه من مخططاتهم للسيطرة الأوروبية المسيحية الاستعمارية فقال: [illegible] إن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنايا الفتوح وفي أفكار المقهورين الذين أخضعتهم للكيانات التي حاقت بهم ولكن لم تنشط نشاطها ... ثم يستمر هانوتو في الحديث عن خطر السنوسية على الاستعمار الفرنسي ونهضة حضارية عربية: "لقد أصبح السنوسي في جهة ليس بعيدة من الأصقاع التي هي أملاكنا في الجزائر [illegible] مركزها خطيرا له أتباع وأنصار ومن مذهبهم التشدد في القواعد الدينية ولقد سنوا رسما مؤبدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية العثمانية بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية [الاستعمارية الأوروبية] وهم يطرحون حبائل الدسائس التي وقفت رجال سياستنا عن كل عمل مفيد يصالحنا في فريقيا المحروسة فهل في قرانا وبلداننا كذا نرى دراويش فقير متدثر بأردية البيضاء المعلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلويه عن ذلك شيء وهذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية زاويا حول الأقطاب الأولياء من مشايخ السنوسية إنما ينشر في القلوب، حيثما حل وأينما توجه، بدون ... واضطراب عنت

وعندما ضغطت الدول الأوروبية الاستعمارية على السلطان العثماني عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] كي يوقف النشاط السنوسي استجاب لهذا الضغط بعد تمنع

(١) ... ص ١٦ ...

وإبطاء.. فاستدعى المهدي السنوسي [١٢٦٠ - ١٣٢٠هـ = ١٨٤٤ - ١٩٠٢م] ليقيم في الآستانة في «قفص ذهبي» كالذي احتبس فيه ذلك السلطان جمال الدين الأفغاني حول ذات التاريخ.. ولكن المهدي السنوسي تخلص من هذا الفخ متلطفًا.. بل وبعد بمقره بعيدًا في الصحراء الليبية فغادر «جغبوب» إلى «الكفرة».. فلما زاد الخطر واقترب انتقل من «الكفرة» إلى «قرو» بالسودان الأوسط'

بل إن السنوسية لم تدرك أن الضعف العثماني قد حول الدولة العثمانية إلى جسر من الجسور التي تعبر من خلالها قوى الغرب الاستعماري كي تستبيح ديار العروبة والإسلام.. حتى لقد غدا الترك -كما يقول محمد الشريف السنوسي- مقدمة للنصارى [أي للمستعمرين الأوربيين] «ما دخلوا محلا إلا ودخله النصارى» حتى ليقول المهدي السنوسي: «الترك والنصارى، وإني أقاتلهم معًا»

فالسنوسيون، بموقفهم مع العروبة ومع الإسلام العربي وبعدائهم لأعدائهم، أوربيين كان هؤلاء الأعداء، أو أتراكًا عثمانيين.. وأيضًا، بما أعادوا وبعثوا من فروسية عربية في الخلق والقتال.. وبما اختاروا أنه من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها، كانوا أصحاب إسهام عظيم على هذه الجبهة من جبهات الاستقلال الحضاري للأمة العربية الإسلامية.

■ وإذا كانت سمة التصوف التي اتسمت بها السنوسية تحجب عنصرًا تجديديًا للأنظار ويدعو البصائر إلى التأمل العميق.. فالسنوسي كان صاحب نظر في العلوم الطبيعية واقتناء لأدواتها إلى جانب تبحره في علوم الدين واجتهاده فيها.. وقيام الخطر الاستعماري بين

والمحقق والممهد لكيان الأمة، أدرك الرجل أن لا بد من «المرابطة»
بما عناه هذا النظام في تاريخ الإسلام من تنظيم يصطفي الأمة
وحشد لها في وحدات مقاومة متربصة تتصدى بالمجاهدة
والقتال لخطر الأعداء. فكانت فكرة «الزاوية» السنوسية
كمؤسسة متكاملة لصنع الرجال دعاةً ومجاهدين، ولتنمية المجتمع
ومجاهدة الأعداء ونشر العروبة والإسلام. كانت «الرباط»
الإسلامي الحديث الذي يجدد روح «الرباط» و«المرابطة»
الإسلامية الأولى التي قال عنها الرسول ﷺ: «رباط يوم في
سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»(1) والتي قامت عليها
وباسمها دولة جددت الإسلام بالمغرب حيث من أشهر هي دولة
المرابطين [448 - 541هـ = 1056 - 1146م].

كانت «الزاوية» السنوسية هي مؤسسة حكومية [الحكومة]
ومزرعة تعاونية ونموذج المجتمع الجديد الموعود. فغير المسجد،
نجد فيها منزلا لقائدها [المقدم] - وللوكيل وللشيخ، وفيها
بيوت للضيوف وعابري السبيل وللفقراء الذين لا مأوى لهم،
وفيها مساكن للخدم ومخازن للحبوب، وحظائر ومتجر وفرن
وسوق. وحول هذه المباني العامة توجد المساكن الخاصة
بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم لتعليمهم وتثقيفهم.

وللزاوية أرض زراعية خاصة بها وآبار خاصة وصهاريج
لحفظ المياه وأرضها وحدائقها تزرع جماعيا. يعمل فيها
القادرون بلا أجر يوم الخميس من كل أسبوع كما تدرب فيه يوم

(1) رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وابن ماجه والدارمي وابن حنبل

مجتمعة في كل أسبوع على الفروسية والصيد [illegible]
الزاوية تعلو على الجنبات [illegible] وصدحت [illegible]
وتعليم وعلاج وزواج [illegible] الطريقة الرئيسي

ومقدم الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة وقائد قبائلها في الجهاد والوكيل هو المشرف على الزراعة [illegible] والاقتصاد [illegible] تتولى التعليم وتحفيظ القرآن ومن هؤلاء [illegible] ومن رؤساء [illegible] الزاوية [illegible]

[illegible] في الرواية السنوسية [illegible] معمورة [illegible] من الخطر [illegible] عن العروبة والإسلام والجهاد في سبيل الله وقد وصفها السنوسي [illegible] الأرض [illegible] بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار [illegible] معمورة وتتسع الأدوار والعاملون فيها بالزراعة والحرف هم السابقون عند الله [illegible] على الأوراد والأوراق والمسابح

لقد [illegible] الزاوية وحدد الخطر المحدق بأهلها الصورة [illegible] هذا العصر - السنوسي في العصر [illegible] الاستعمار [illegible] في [illegible] عقود [illegible] للتحرر والاستقلال [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

٣- المهدية

في جزيرة ... على بعد خمسة عشر كيلو مترًا من دنقلة بالسودان، ولد مؤسس المهدية ... المهدي ... محمد أحمد [١٢٦٠ - ١٣٠٢هـ = ١٨٤٤ - ١٨٨٥م] في أسرة فقيرة فقر ... بها إمكانياتها الفقيرة عن أن ترسله إلى الأزهر ... كي يتعلم فيه فاحترف النجارة لكنه حضر علم الفقه ... المحسنين ودرس التعليم ... في ... حتى ذاعت شهرته وعلا نجمه وأصبح في الطريقة السمانية خليفة له ... ثم أصبح شيخًا ... الطريقة سنة [١٢٩٧هـ = ١٨٨٠م].

وكان محمد أحمد طموحًا إلى الإصلاح ... مجتمع على غرار مجتمع الرسول ... في صدر الإسلام وقد ... على ... الإصلاح بالفقهاء والحكام ... في عامة الناس.

وفي [أول من شعبان سنة ١٢٩٨هـ = ٢٩ يونيه سنة ١٨٨١م] أعلن محمد أحمد على الناس أنه المهدي ... الرسول ﷺ قد جاءه في رؤيا، وكلفه بالمهدية ...

الناس في الإيمان به مهديا، وإلى الهجرة إليه والجهاد معه لإقامة الدين وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب، وتجديد دين الإسلام خالصة من [illegible]

كانت مهمة التجديد واليقظة والتحرير السودانية أكثر صعوبة منها في غيره من البلاد، فوحدة [illegible] والتخلف الإداري والفكري تحت سلطان الحكم الأجنبي، والفقهاء قد تحولوا إلى أداة للحكم الجائر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بهم العقول.

ولمثل هذه المهمة الصعبة وقف محمد أحمد [illegible] حتى مثل الأسطورة المهدية [illegible] وغدت هذه الأسطورة [illegible] الفعل في صهر الأمة وتوحيد جماعة واستنفارها للجهاد خلف مهديها للتجديد والتحرير والإصلاح.

* * *

■ وقد واكب المهدية صعود نجم الثورة العرابية ضد الخديوي توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩هـ / ١٨٥٢ - ١٨٩٢م] والتدخل الأوروبي

[illegible]

الاستعماري في مصر وكان هذا [illegible]
[illegible] صعب محو الآثار [illegible]
[illegible] في هذا الثالوث، المكون من الأوربيين
والأتراك والحكومة الخديوية عدواً واحداً [illegible]

فبعد معاهدة [illegible] سنة ١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م [illegible]
اختراق تجربة مصر [illegible]
النفوذ الأجنبي في مصر خاصة في حكم الخديو سعيد [١٢٧٠
- ١٢٧٩هـ = ١٨٤٥ - ١٨٦٣م] والخديو إسماعيل [١٢٧٩
- ١٢٩٦هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩م] [illegible] في حكم
الخديو توفيق [١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م] [illegible]
الذي كانت إدارته للحكومة الخديوية [illegible]
تعيين [illegible] من الأوربيين حكاماً على [illegible]
[illegible] حكم الاستعمار [illegible]
[illegible] حكم [illegible]
[illegible] حكم [illegible]
[illegible] حكم [illegible]
حكم [illegible]

وكان السودانيون يسمون الحكم الخديوي بالحكم التركي
ويصفون حكامهم بالأتراك، وزادت مبررات هذا الوصف عندما
انحاز الخديوي توفيق [illegible] والأتراك ضد الثورة العرابية

وكانت [illegible] الأجنبية [illegible] الحكم التركي [illegible] في
السودان وبأهله حد المأساة.

وأمام هذا الغزو كان رد فعل المهدية معاديًا للأتراك فهم

«كفرة لا [illegible] من جهادهم وهم أعداء لا [illegible] من [illegible] حتى

في الزي والعادات والتقاليد ولا يجوز التشبه بهم [illegible]

يقول المهدي لأتباعه في [illegible] ومنشوراته [illegible]

[illegible] قسمة عربية معادية للسيطرة التركية» يقول «اتركوا

كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك الكفرة، كما قال الله تعالى في

الحديث القدسي «قل لعبادي المؤمنين أن لا يدخلوا مداخل

أعدائي ولا يلبسوا ملابس أعدائي فيكونوا هم أعدائي كما هم

أعدائي» فكل الذي يكون من علامتهم ولباسهم فاتركوه

وهو يحدثهم عن أن رسول الله [illegible] قد أمره بذلك وحرضه

عليه فقد [illegible] للترك واحد من [illegible] المهدية فيقول لأتباعه

«لقد حرضني سيد الوجود [illegible] على قتال الترك وجهادهم بعد

أمرني النبي أمرًا صريحًا بقتال الترك وخبرنا بأنهم كفار

بمخالفتهم أمر الرسول [illegible] وإرادتهم إطفاء نور الله تعالى

الذي أراد به إظهار عدله، وقد أعلمني الرسول أن الترك لا يطهرهم

الموعظ بل لا يطهرهم إلا السيف [illegible]

وهو يذكرهم بظلم الترك وعسفهم فيقول [illegible] الترك قد

وضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين وكانوا يسحبون

(١) [illegible] ص [illegible] [illegible] سنة ١٩٦٩م

(٢) [illegible] ص ١٤، ٣١١، ٣١٢، ٣٣٢

رجالكم، ويسجنونهم في القيود ويأسرون نساءكم وأولادكم ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حق، وكل دين لا حق بحريته التي لم يأمر الله بها ولا رسوله. فلم يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم

فسجن قومية بسخية قومية عدمت استقرار فيهم روح المغايرة» للأتراك. وكان هذا إسهاما بالتمهيد على درب التمايز القومي عن الأتراك العثمانيين.

* * *

• وإذا كانت «الفكرية» التي نشطت بها طرق التصوف و[illegible] فقه الخرافة والجمود كانت دعوة [illegible] في [illegible] [illegible] من [illegible] و[illegible] التي [illegible] الفكر الإسلامي وتكشف عن [illegible] الفكر الركود [illegible] فقد [illegible] [illegible] [illegible] الحقيقية إلى [illegible] [illegible] [illegible] التي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لعصورهم [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] العصرية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] معرضون [illegible] نصوصكم وعقولكم عن استعمال الفكر وفي ومعاد [illegible] وكل زمان وأوان [illegible] وقد كانت الآيات تنسخ في زمن النبي، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح نحن نقول [illegible]

[illegible]

من سلف من المهديين السابقين على نهج محمد ﷺ فاتبعوا أحكام كلام الله في القرآن ولا تتبعوا [illegible] الزمان وقد بايعتموني على أن لا تشركوا بالله شيئاً[1].

لقد عادت المهدية على الجبهة الفكرية لتستلهم المنبع الأول فالمهدي خليفة الرسول وخلفاؤه هم خلفاء الراشدين الأربعة، وهم قد تخطوا بذلك تجارب الأمة العباسية التي [illegible] وفقدت حضارتنا الاستقلال. وعلى الجبهة الفكرية ألغت المهدية تراث المذاهب الفقهية أو حولته إلى تراث [illegible] دون المهدي [illegible] لم يلتزم بمذهب فقهي [illegible] وإن وصف [illegible] المذاهب [illegible] أكثر من غيره. كما ألغت «الطرق الصوفية» وتراثها الخرافي. وعادت تستلهم الكتاب والسنة وتعفي من قدر [illegible] في تفسيرها لنصوصهما [illegible] الحديث، [illegible] الاجتهاد إلى هذه [illegible].

وكل هذه المهدية لا يتنكر على درب الاستقلال الحضاري للأمة.

• • •

• وعلى الجبهة [illegible] وحدت المهدية في جماعة فكر الاجتماعي للإسلام الفكر الفطري الذي [illegible] المجتمع السوداني العفوي والبسيط، والذي لم تتضرر فيه بعد [illegible] وعرفت كما وجدت فيها [illegible] الثوري الرافض للمظالم الاجتماعية التي [illegible] وكتب بشأنها قرون تطاول عليها الأمد.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٨ - ٣١

لقد انحاز الحكام والفقهاء إلى صف أعداء «المهدية» وخصومهم المتمتعون بالظلم الاجتماعي الذي ساد في [illegible] «المهدي» وأنصاره فإن أغلبيتهم الساحقة قد كانت من الطبقات الفقراء والأعراب، الذين حرموا من الثروة ومن التعليم معًا و«المهدي» قد استنفر جماهيره إلى الجهاد بالجنة الموعودة وهيأ لهم سبل العيش وأدوات الجهاد بالجماعة الإسلامية التي أقامها لهم في الثروات والأموال والاقتصاد.

وعندما كان خصوم «المهدية» يعيبون عليه فقر أتباعه في المال والتعليم كان «المهدي» يفخر ويفتخر على هؤلاء بخصومه بهذا الفقر فيراه شرفًا ويتمسك هو وأتباعه في سبيل السلف الصالح مبينًا أن أتباع الرسل كانوا هم الضعفاء والجهلاء، أما الملوك والأغنياء وأهل الترف فهم [illegible] خرجوا ديارهم وقتلوا أشرافهم ومكروهم بالقهر كما قال تعالى حاكيًا عن قوم نوح ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾(1) وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون (34) وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾(2) ولقد قال أهل البغي والطغيان عن أتباع «المهدي» إنهم الأجلاف الأعراب عراة الأجساد جياع الأكباد فلم ينفعهم عندهم ما ضربه عليهم الذلة والمسكنة وجعلهم الله غنيمة لضعفاء الأعراب

(1) هود: 27

(2) سبأ: 34، 35

[illegible] كانوا يستثيرون بعد [illegible] وكيف يرجع [illegible] تكون الاغنياء ومن ورائهم عبيد [illegible] جيلا [illegible].

ويرد المهدي على خصومه [illegible] الاثرياء والمخضوبين الاغنياء عن [illegible] الصحابة [illegible] في صحابة رسول الله ﷺ من كانوا اغنياء [illegible] المهدي على خصومه هؤلاء [illegible] الصحابة الذين [illegible] لم [illegible] عنهم الا بعد [illegible] حتى [illegible] في [illegible] ومن [illegible] في [illegible] في [illegible] وكانوا عليها كالوكلاء ينفقونها حسب [illegible] موكلهم ومولاهم وبذا قال الله تعالى ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [illegible] وقد قال ﴿وانفقوا مما [illegible]﴾ [illegible]

آخر صحابي دخولا للجنة عبد الرحمن بن عوف لكثرة غناه وهو اول من يدخل الجنة من اغنياء امتي

وانطلاقا من هذا الفكر الاسلامي اصبح [illegible] وتستجيب لضرورات المجتمع السوداني وظروفه [illegible] المهدي التجربة الاجتماعية المستمرة عن التطبيقات [illegible] وعن تطبيقات الحضارة الاوربية في الاموال والاقتصاد [illegible] [illegible] المهدية [illegible] المبايعون يعطون انفسهم واموالهم وهو هنا [illegible] والتحسيب للجماعة و [illegible] وفي الارض

١ [illegible] المهدية ص ٣١٣ – ٣١٤
٢ الاسلام [illegible] العيوم [illegible]
٣ [illegible] ٧
٤ [illegible] المهدية ص ٣٢، ٣٤، ١ [illegible] ٢ [illegible] ٣٦٩

[illegible] وفق [illegible] عند الحد الذي [illegible] الإنسان [illegible]
يزرعه وما زاد على ذلك تعطيه لأخيه المؤمن المحتاج [illegible]
الدكاكين والوكالات [illegible] والعقارات والمعاصر
والطواحين ومواشي [illegible] [illegible] فلقد
عدت كالفيء مصالح عامة فهي للمحتاجين والمستحقين

وفي هذا [illegible] الاجتماعي [illegible] للإنسان
المقتدر [illegible] له من احتياجات ضرورية دون [illegible]
على الضرورات [illegible] ضرورية و[illegible] على
الضرورة [illegible] هو على العبد [illegible] ومصالح الخلق كلها
متعلقة [illegible] كما يقول المهدي

هكذا [illegible] في [illegible] الأخلاقية [illegible] الإسلام [illegible]
الضرورات [illegible]

[illegible]
يستلهم الأسطورة التراثية التي [illegible]
الأسطوري الذي تعده السماء ليقتص [illegible]
من مأزقه، فيملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت بالجور و[illegible]

* * *

هذا عن دعوات التجديد الديني السلفية [illegible]
[illegible] في
الاقرار من [illegible] الاستغلال [illegible]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٨ [illegible]

ومن أكبر هذه الأعمال [illegible] السيد [illegible]

من [illegible] تولى الت[illegible] حركة التنوير الحديثة [illegible] والوافي

بالحاجات [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

لحضارتها الحديثة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والاستحداث وهي

مدرسة الجامعة الإسلامية التي تمثلت في [illegible] جمال الدين

الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] والإمام محمد

عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] وعبد الرحمن

الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] وعبد الحميد

بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فتيار

[الجامعة الإسلامية] هذا قد استفاد من تجارب سابقة في هذا

المجال ولكنه وجد عنده:

أ- سلفية في الدين تجديدية والعقلانية [illegible] في هذا التجديد.

ب- العروبة في القومية على أساس حضارتها لا عرقيتها.

جـ- الموازنة بين الخصوصية الحضارية وبين الاستفادة من الحضارات الأخرى.

د- النظرة المستقبلية المستنيرة في التمدن.

هـ- الموازنة بين الخصوصية القومية العربية وبين الرابطة الإسلامية الجامعة [illegible] الإسلام.

ففي فكر [illegible] هذا التيار الذي تقدم [illegible] التحرر الذي تجسده [illegible] وضرورة تحرر الاستقلال الحضاري لأمة العروبة الإسلامية.

النهضة المصرية والاستقلال الحضاري

الأمر الذي لا شك فيه أن النهضة المصرية التي عرفت محمد علي باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] هي التي دخلت بعالمنا العربي وشرقنا الإسلامي في رحاب عصر اليقظة والبعث والإحياء.. العصر الحديث.

لقد تطلعت مصر إلى هذه النهضة على عهد حكم علي بك الكبير [١١٤٠ - ١١٨٧هـ = ١٧٢٨ - ١٧٧٣م] ثم جاءت الحملة الفرنسية [١٢١٣هـ = ١٧٩٨م] تنبه الأذهان بواسطة العصر القادم في ركاب الغزو الاستعماري ومثلت دور "الدرس الكهربائي" الذي لم تستطع صحوته [illegible] ولم تكن الصدمة الحقيقية لمفاجأة [illegible] كي تستنهض [illegible] العصر [illegible] المعاصرون.. ولقد تجسد هذا الأمر في كله [illegible] الذي خالط علماء الحملة الفرنسية الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠هـ = ١١٦٦ - ١٨٣٥م] والتي تقول [illegible]

لمصر وتحدث عنه من العلوم والمعارف ما أحس فقده، ثم جاءت التجربة الإصلاحية التي قادها محمد علي لتصنع أغلب النسيج الحديث في المدارس والمطبوعات.

صحيح أن دعوات دينية سلفية قد سبقت النهضة العصرية هذه في البلاد العربية وجاءت استجابة لخطر التخلف الذي ... قديم الموروث عن العصر المملوكي العثماني ... حضور الأمة وتمكن عقلها ... الأوروبية ... الأرض ... الموقع الاستراتيجي ... وتكريسه ... الشخصية القومية المتميزة ... عن ... بها العربية الإسلامية الخاصة بها.

لكن هذه الدعوات الدينية السلفية التي سبقت النهضة العصرية في الزمن، لكنها قد سلكت طريقا متميزا عن ذلك الذي سلكه محمد علي وهو يسعى بمصر في طريق النهضة والإصلاح.

■ فالوهابية مثلا قد كانت لها الريادة من حيث الزمن المبكر والسبق على النهضة المصرية ... في ... كما قدمنا ... الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م] في نجد بشبه الجزيرة العربية واقترنت ... بتحالف ابن عبد الوهاب مع أمير الدرعية محمد بن سعود [١١٥٨هـ - ١٧٤٥م]

■ أما «السنوسية»، فإنها عاصرت نهضة محمد علي ثم استمرت بعدها. فهي قد تبلورت - كما سبق وأشرنا - حول

دعوته ومؤسسها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩م]. وأقامت رباطاتها وكونت مدارسها ومريديها، وأنجزت أعظم انتصاراتها خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين.

لكن لا السبق التاريخي الذي كان للوهابية على نهضة محمد علي، ولا الاستمرارية التي تحققت للسنوسية بعد محمد علي، أوروبا والمستشرقين لنهضة مصر الحديثة يمكن أن يعقد لواء الريادة لنشرق إلى عصر النهضة والإحياء لهذه الدعوات، وإنما يظل لواء هذه الريادة معقودًا لمصر، فهي التي دخلت بالمنطقة العربية، بل وبعالمنا الإسلامي إلى رحاب العصر الجديد، وحققت لهما معالم اليقظة والتنوير.

أما سبب هذه الريادة فهو ما تميزت به نهضة مصر عن تلك الحركات التجديدية الدينية السابقة من خصائص ومميزات.. وفي مقدمتها:

أن هذه النهضة المصرية قد نشأت وتبلورت في مجتمع متحضر مستقر، وفي مناخ بالغ التعقيد بالقياس إلى التحضر في طبيعة دول الوطن العربي وعالم الإسلام ... والدولة المركزية القوية لها في مصر أطول عمر في تاريخ «الدولة» على الإطلاق.

والطبقات الاجتماعية متبلورة إلى حد كبير، والمواريث الفكرية قد تجاوزت «التبسيط» إلى «التركيب»، والأزهر يعمد

سابقة من حلول العصور الوسطى .. قد حفظ سلفية بقيم وتقاليد موقدة ومتصلة حتى من العصر المملوكي العثماني بتطوير

ولتوضيح التقسيد لمصر كمركز خلافة أو سلطنة أو متمصر على الأقل كولاية تتمتع بالاستقلال الذاتي .. قد ثبت وفرض نفسه واحدث ثورة على وضع البلاد وعلاقاتها بمقاسم الدولة الإسلامية وولاياتها منذ أن استقل بها الطولونيون في عهد مؤسس دولتهم أحمد بن طولون [٢٢٠ – ٢٧٠هـ ٨٣٥ – ٨٨٤م] والحقوا بها أقاليم أخرى في المشرق العربي

فلم تكن مصر بعد الصحراء .. ولا هي كانت الصحراء لسيدة

ب- **كما تميزت هذه النهضة المصرية التي** قادها محمد علي باشا، بكونها حركة إصلاح مدني، قادها مصلحون مدنيون ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقادة والمديرون الذين تميزوا عن «المصلحين الدينيين»، والذين لم يتقدموا إلى الأمة «كفقهاء» وعلماء دين .. فالمحصلات للإصلاح كانت «مدنية». والمعايير في هذا «الإصلاح» كانت مصلحة الأمة .. والموقف من الآخر في هذه التجربة قد تمثل في:

■ تجاوز الاصطدام بمؤسسة الدين ورموز «الإصلاح الديني» والمحافظين .. إذ مع تركهم لحالهم، وترك عالمهم لهم يعيشون فيه ويفكرون له على نحو ما كان الحال قبل عصر النهضة والإصلاح

● وتجاوز الاغتراب بأن يأتي «الإصلاح المدني» .. الذي سبقت تبنيه للتجربة وطبقته .. ماس بشيء من المسلمات الدينية التي أجمع

الناس على فلسفته أو منكرا لأمر من الأمور التي عرفت من
الدين بالضرورة [illegible] بتصور من التصورات التي
اكتسبت قدسية عند [illegible] حتى [illegible] الفرصة لأعداء
الإصلاح من علماء الدين لاستنفار [illegible] هذا الإصلاح.

ولم يكن موقف محمد علي شاذا من الأمر وعقبة [illegible]
فكرية [illegible] الإسلام في نهضته [illegible] ولم
[illegible] هذه النهضة على التجديد الإسلامي والإسلام [illegible]
[illegible] الإسلام وهذا [illegible] الناس [illegible]
في نهضته على نحو [illegible] في [illegible]
وأنه لدى حكم موقف محمد علي هذا وجد [illegible]
المدنية [illegible] السياسة [illegible] وصار الإصلاح هو

١ - [illegible] من علماء الدين [illegible]
ثم أنه هو [illegible] الإصلاح وقادة [illegible]
[illegible] كما كان [illegible] بن سعود مع ابن عبد الوهاب.

٢ - [illegible] صورة [illegible] قبل عصره [illegible]
أولى من حكمه على وجه الخصوص [illegible] في [illegible]
و[illegible] لتعرض الاحترام على من هو في [illegible]
[illegible] من [illegible] قد [illegible]
[illegible] حتى [illegible]
[illegible]
[illegible] علماء [illegible]
لقصد الإصلاح وفي وصف الجبرتي [١١٦٧ – ١٢٣٧هـ

١٧٥٤ – ١٨٢٢م] لحساسيته الشديدة بالغرب. وهو يتحدث في أسى. وفي

الدرب يحدث و... سيما انتشر ... وتحرق النفس

والدروس بعلم لا يتعدى حفظ الدروس مع ترك العمل بالكلية

وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء ... واتخذوا الخدم

والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعذيب والضرب وصار

بأيديهم وعلى عهدهم تكرار الأمور الديوانية والحصص والالتزام،

وحساب الشريكة والفائض والمضاف والبرانية والمرافعات،

والمراسلات زيادة عما هم فيه من التفاخر والتحاسد والتحاقد

على الرياسة والتفاخم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ

الانفس على الأشياء الواهية؟[1]

٣- حتى الرجل الذي تميز عن هؤلاء العلماء والشيوخ

بالثورية والاستنارة بالجماهير وهو السيد عمر مكرم [١١٦٨-

١٢٣٧هـ=١٧٥٥-١٨٢٢م] كان ضحية وحيلة محمد علي باشا

على نحو يجعل العقول تسيغه شبه مستحيل فصروحهم مع

كل بلا حدود. الأمر الذي جعل صداقتهم الذي مبكر حد فقط

خلال الشيوخ ضد السيد عمر وتعود بحرابات ونصاب

الأوقاف عن هو كذلك إلى محسوبة المماليك، كشركاء في تحمله

السلطة، كي يحول دون انفراد محمد علي بها فحدث بمفارقة

لعجيبة عند المصر السيج الشعر لا؟ النظام الظالم القديم

وهو الذي سبق له أن قاد الأمة ضد هذا النظام القديم! فكان أن

[1] عجائب الآثار في التراجم والأخبار] ج٧ ص ١٤، ١٥ - طبعة القاهرة سنة ١٩٠٨م

يتخلص منه محمد علي بقراره، واتفق عليه بعضهم

والمحاصر تطوع بترسيخ هؤلاء العلماء

٤- والفكرية المحنطة والجامدة التي كان عليها هؤلاء الشيوخ: فكرية العصور الوسطى، التي سبقت إلى غلق باب الاجتهاد واستمرت الكسل العقلي عن مقاربة الحق والإبداع وكتفت بالحركات الفقهية في ترديد المتون والحواشي والشروح والتعقيبات والملخصات والاعتراضات .. الخ. إن هذه الفكرية ما كان لها ولا لأصحابها أن يكونوا شركاء الإصلاح ولا قادته الذين يخطون من فكرهم ما يديرون به النهضة، ومن قبل مثل محمد علي الساعي لزرع الإصلاح الإسلامي في تربة مصر وعقل الأمة ووجدانها. لقد كان هؤلاء الشيوخ يعيشون أسرى فكرية العصر القديم، بينما كانت البلاد تتصدع إلى عصر جديد، فكان الانفصام بينهم وبين هذه النهضة قدرًا مقدورًا. وصدق عليهم ... "الإصلاح الديني" ... صدق على محمد علي، راء الإصلاح الديني، فهو شيء لا يعنيه

هكذا تميزت نهضة محمد علي عن حركات الإصلاح الديني ودعواته، لأنها لم تجد المصلح الديني الذي تؤكد ... الدينية مخصوص متحصرا كمصر فكان أن بدت نهضة إصلاح مدني، إن في المصطلحات وإن في التعبير وإن في الغايات وإن في الأدوات، وإن لم يخرجها طابعها المدني عن النسق الحافظ لاستمرارية روح شريعة الإسلام

(١) المصدر السابق ج٧ ص ٦٧ – ٧٦

■ في لغة عامة لسنة ... انتقلت بنية مجتمع مصر إلى مرحلة جديدة، وانتقلت ... الأصلاحات إلى حال «كيفي» جديد

ففي الزراعة ألغى نظام الالتزام [١٢٢٩هـ - ١٨١٤م] ووزعت الأرض على الفلاحين بتكلفة ... من ثلاثة فدادين إلى خمسة أفدنة، وسيطرت الدولة بالتحصيل على الإنتاج الزراعي، وتطورت المحاصيل، وحدثت ثورة في الري والصرف وزادت الرقعة المزروعة إلى نحو ثلاثة أمثالها، وتحول ... من ... إلى الفلاحين.

وفي التجارة ... سيطرة الدولة ... الأجانب على السوق الداخلي والخارجي ... ضعف البورجوازية المصرية الوطنية التي ... السوق التجاري ... للمشروع الاقتصادي المستقل

وفي الصناعة أقامت النهضة قاعدة صناعية كبرى ومتوسطة ... الإنتاج الوطني ... عسكرية ومدنية ... وتخطيطها ... ساعدت في ... للناس وللولايات ... هذه الولايات ...

وفي حيز الدولة ... البعثات العلمية التي ... دورا في ... وفي تطوير

الثقافة العربية الإسلامية [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ١٠ [illegible] ٢١٨هـ

١٨٦ - ٨٢٣م [illegible] سنة ١٢٣٠هـ

١٨٢٠م] [illegible]

وفي الفكر [illegible] العربية [illegible]

عامة إلى الفصحى وشرعت الحكومة العربية [illegible]

التراث العربي الإسلامي التي [illegible]

[illegible]

[illegible] على [illegible]

[illegible]

غير [illegible] الحديث

* * *

[illegible]

العربية [illegible]

[illegible]

[illegible] مع الدولة العثمانية [illegible]

العلاج [illegible]

[illegible]

[illegible] الإصلاحات

ثم هي قد استدعت محمد علي وجيشه حتى [illegible]

[illegible] حرب عربية ببلاد العرب لسبع سنوات [١٢٢٦ - ١٢٣٣هـ ١٨١١ - ١٨١٨م] وأصبحت انتصاراته في هذه الحرب هو [illegible] [illegible] مصر [illegible] في الأفق خريطة دولة صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩هـ ١١٣٧ - ١١٩٣م] التي كانت طوق النجاة من خطر قديم عاد الآن من جديد.

ثم [illegible] كوادر عربية [illegible] تركية [illegible] الذين أتوا مع محمد علي إلى مصر صغاراً، عاشوا فيها [illegible] عربية جعلتهم يعتزون بالعروبة، ويفرون من الانتساب إلى الأتراك. وفي مقدمة هؤلاء القادة ابن محمد علي، إبراهيم باشا [١٢٠٤ - ١٢٦٤هـ = ١٧٩٠ - ١٨٤٨م] الذي كان يستنكر نسبته التركية، ويقول: «أنا لست تركيا، فإني جئت مصر صبيا، ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها، وغيرت من دمي وجعلته دما عربيا»[1].

ومصطفى مختار بك [١٢٥٤هـ ١٨٣٨م] [illegible] مستشار إبراهيم باشا العسكري وناظر المعارف - الذي يعبر عن هذه «الهوية العربية» عندما يقول: [illegible] موجودين في تركيا [illegible] اكتسبت جنسية [العروبة] المصرية بحكم البيئة [illegible] مصر [illegible] نصيب [illegible]

(١) محمد عمارة: [illegible] في العصر الحديث ص ١٤٦ طبعة [illegible] سنة ١٩٨٤م

الآن تراه؟ [illegible]

طريقه إنما سار سوى [illegible] الخراب ولقد اندمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من [illegible] المركبة، اندمجنا في تلك الأمة العربية [illegible] عرفنا [illegible]

[illegible]

[illegible]

وكانت فتوحات محمد علي في السودان [١٢٣٥–١٢٣٧هـ ١٨٢٠–١٨٢٢م] والحملة على الشام [١٢٤٧هـ - ١٨٣١م] [illegible] مصر والسودان والأجزاء العربية على الساحل الشرقي لأفريقيا مع الشام [illegible] جزيرة العربية [illegible] العراق والخليج [illegible] في عصرنا الحديث.

* * *

● [illegible] علاقة هذه النهضة بالإسلام [illegible] الخالدة لأمتنا الواحدة؟

١ المرجع السابق ص [illegible]

٢ المرجع السابق ص ١٣٥ [illegible]

هي بمنظور [illegible] التحديث الغربي للعقل الإسلامي وهي كانت صورة للعقل العربي [illegible] محمد على [illegible] واضحة في عصر التغريب.

إلا أن المحصن [illegible] على هذا التحول [illegible] لكنه [illegible] التجربة ويحسبه [illegible].

فمنذ البداية كان واضحا أن محمد على باشا يأخذ عن أوروبا التمدن المادي لتحقيق الترقي، ولا يأخذ عنها «الفلسفة» و الثقافة و التغريب. والبعثات العلمية التي ذهبت إلى أوروبا وتعلمت ثم عادت لتصنع الآلات والتعليم وتعطي النهضة روحها الفكرية ورفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١- ١٨٧٣م] نموذج لها - قد رأت أوروبا بعين إسلامية مسلمة فسعت إلى التمدن العملي وإلى العلوم العملية وإلى «المعارف البشرية المدنية» وإلى «فنون الصناعة»، ثم حدثت بها مجيدة [illegible] الأمة مختنقة في أثناء عدم [illegible] هذه العلوم لنا مختص به من قديم و عديد وقسمات حضارية مميزة لنا بل وأعلنت أن أصل هذه العلوم [illegible] البشري هو من علوم حضارتنا في عصر ازدهارها أخذه الأوربيون فنهضوا به ثم طوروه، وهم عندما أخذوا ما لم يأخذوا العقيدة ولا الدين ولا خصوصيتنا الحضارية بل ظلوا [illegible] بالتمدن الإسلامي والعربي في خصوصيتهم ومع ذلك ظلوا متميزين حضاريا فنحن إن نأخذ اليوم «التمدن الأوربي» لننهض به [illegible] في الحضارة [illegible] بضاعتنا قد ردت إلينا كما يقول الطهطاوي

ونشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضة من هذه الحضارة [illegible] الحكم الذي شاع في كل ما كتب [illegible] عن تقييم نهضة محمد علي [illegible] عنهم [illegible] على أوربا [illegible] عموم الصفوة ولم [illegible] و [illegible] ومصر [illegible] [illegible] على هذا [illegible] [illegible]

وهو الذي [illegible] [illegible] والنهضة التي [illegible]

وغير هذا [illegible] على [illegible] رفاعة الطهطاوي [illegible] بين [illegible] الإسلامي [illegible] الأوربي [illegible] الطهطاوي [illegible] على [illegible] بالإنجليز

[illegible] الأوربي [illegible] على [illegible] الاستقلال [illegible] هويته القومية والشرقية [illegible] الإسلامية [illegible] لمحمد علي [illegible] الإسلامية

فهو [illegible] الإفرنجية [illegible] المعارف والآداب التي [illegible] العمران [illegible] حتى [illegible] الأزهر الشريف [illegible]

(١) [illegible]
[illegible] ١٩٦٣م

ستجد أن الحضارة الأوروبية [illegible] معارف [illegible] و علوم حكمية عملية، لأن [illegible] الحقيقية لأصل هو هذا الأمر [illegible] التي ستصبح [illegible] سلاحاً على [illegible] في أرض [illegible] ثقافتها وخصائصها الحضارية [illegible] دعوة الطهطاوي الأزهريين إلى [illegible] هو الأساس معقوداً على [illegible] الإسلامية [illegible] الأمر [illegible] فلا [illegible] في [illegible] الحضارة.

يقول الطهطاوي: إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط بعد ولي الأمر بهذه العصابة [أهل الأزهر] التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيفة معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التي لها مدخل في تقدم الوطنية. وإن هذه العلوم الحكمية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة.

لقد سعى الطهطاوي في باريس [illegible] جومار E.F.Jomard [١٧٧٧ – ١٨٦٢م] – الذي أشرف على بعثة مصر العلمية في فرنسا [illegible] في [illegible] مصر [illegible] للطلاب [illegible] وحكم الذي سيكون [illegible] في تحديث مصر [illegible]

(١) المصدر السابق، [illegible] ص ٣٣ – ٣٤

له [illegible] القلوب التي تحب الفخر وتذوب بالإخلاص للوطن أمامكم منابع العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم وبذلك تردون إلى وطنكم منابع الشرائع والعلوم التي [illegible] بها عدة قرون في الأزمان الخالية فمصر التي يتوقون عنها ستسترد بكم خصوبتها الأصلية وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم [illegible] عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله

سمع الطهطاوي هذا القول وعاد [illegible] مع [illegible] من [illegible] النهضة، المجددين [illegible] الوطن [illegible] [illegible] [illegible] والمستردين لخواصه الأصلية [illegible] على حد تعبير «جومار»

ولهذا وجدنا الطهطاوي [illegible] في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى [illegible] «التمدن المدني» [illegible] يتحفظ كل التحفظ على [illegible] عناصر [illegible] الحضارية في حضارة الغرب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بين العقل وبين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الطبيعة [illegible] العلية [illegible] لكن عقلائها الحضارة الأوروبية [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حضارتنا ومرجعها ومن هنا كان [illegible] [illegible] [illegible] «مقسمات الحضارة الأوروبية» [illegible] يحكي كيف [illegible] للأوروبيين في العلوم الفلسفية «حشوات ضلالية مخالفة [illegible] [illegible] [illegible] ويقيمون [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع [illegible] [illegible] [illegible]

(١) عمر طوسون [البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس و سعيد] ص ٣٣، ٢٤ – طبعة [illegible] ١٩٣٠م

[illegible] أو [illegible]

[illegible]

[illegible] الجديدة [illegible]

[illegible] لم [illegible] هو [illegible]

الحضارة [illegible] والذي لا [illegible]

[illegible] في حضارة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الجديدة والمجتمع [illegible]

[illegible] الذي [illegible]

• • •

لكن

لابد من الاعتراف بأن الأمور لم يكتمل سيرها في هذا الاتجاه

فالمؤسسة الدينية [illegible] المعترف [illegible] عن مقاييس الإسلامية [illegible] قد تخلت بفكرية العصور [illegible] ورفض [illegible] والدولة الحديثة قد [illegible] فرص الإصلاح والتطوير داخل [illegible] وحصة [illegible] وقدمت [illegible] الذي [illegible] عن الصلات [illegible] ولخطوط [illegible] الأسلاد [illegible]

والغرب قد رمى بكل ثقله في بث إشعاعاته الفكرية [illegible] بثير قيمه و ثقافته وحضارته على مؤسسات الفكر

[illegible]

وبعد والتجسد في البلاد بل لقد تحالف العثمانيون مع الغرب ضد طموح نهضتنا إلى استكمال مقومات استقلالها الحضاري عندما استعانوا بالاستعمار على ضرب استقلال المشروع النهضوي ... العربي ... سنة ١٨٤٠م

ثم كانت منعطفات حاسمة ومراحل تحولات أساسية اجتاحت فيها الدولة ... كي تستجيب لضرورات الواقع الجديد إلى تجديد الفكر الإسلامي بالاجتهاد وإلى تطوير الفقه ... فقه المعاملات لتتمكن المؤسسة القانونية من الفصل في المعاملات التي استجدت كما حدث في عصر الخديوي إسماعيل [١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ ١٨٦٣ - ١٨٧٩م]

ويومها جمد أركان المؤسسة ... فقد ... برفضه الدولة ... لا تجل ولا تحور فكان ... الدولة ... في التقنين الوضعية الغربية فاستوردتها الأمر الذي أفقد مؤسساتنا القانونية استقلالها وأفقد حضارتنا شرطا من شروط الاستقلال وكان ... التمكن في هذه النهضة نحو التغريب ... عن الوفاء بحق متطلبات الاستقلال الحضاري ... تكون ... و... المحاكم المختلطة ثغرة في استقلالنا التشريعي قبل الاحتلال الإنجليزي وعلى يد كرومر في سنة ١٨٨٣م

إن المفكر السلفي ابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] يحكي لنا عن عصره المملوكي موقفا مماثلا فيصور في كتابه [إعلام الموقعين] كيف أدى الجمود ...

على الشريعة الإسلامية بالموت والدعوة إلى التشريع للناس وفق الهوى والشهوات؟

وقد تكرر هذا المشهد في عصر الخديوي إسماعيل، وظل يتكرر كلما تحضر [illegible] من علماء الشرع [illegible] بالجمود، فعاشوا خارج العصر على حين أخذ الغرب الاستعماري يسرع في تقديم بضاعته الحاضرة والمنسقة للحكام المتغربين [illegible] جهده لتكون هذه البضاعة هي البديل الذي يوضع في التطبيق

• • •

هكذا سارت الأمور حتى دخلت أمتنا إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر

• الحركات الإصلاحية الدينية السلفية منعتها [illegible] بداوة البيئة من أن تولي [illegible] يجعله النموذج الصالح للتعميم والوافي باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوروبية المسلحة بحضارتها الحديثة، وأيضا الوفي باحتياجات أمة تريد تعويض التخلف وتحصين وطنها لمجابهة ما تأتي به المستقبل من تحديات

• ونهضة محمد علي وخاصة بعد حصارها وفرض القيود على استقلاليتها قد حرمتها المحافظة الدينية والجمود الأزهري من فرصة تأسيس تجديدها على أسس إسلامية خالصة فنفذ الغرب من هذه الثغرة فملأ [illegible] هذه النهضة بالنموذج الغربي، فلم يكن الاستقلال الحضاري لدى [illegible]

[1] [illegible] ص ٣٠٤، ٣١٣ طبعة بيروت سنة ١٩٦٣

فكان أن ظلت الأمة تبحث عن مشروع فكري يجمع في أطروحته كل عناصر النهضة الحضارية وجميع شروط استقلالها. وعندما تبلور هذا المشروع في دعوة [الجامعة الإسلامية] وحركتها على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، حاربه دعاة «التغريب»، وأنصار «الجمود» معًا وحالوا بين فكرة هذه النهضة وبين أن ينتشر أو توضع في التطبيق[1]

لكن ذلك لم يمنع من أن يكون هذا التيار السلفي العقلاني - المستنير - هو أكثر تيارات التجديد التي عرفتها أمتنا الحديثة استجابة لمتطلبات الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية



تيار الجامعة الإسلامية والاستقلال الحضارى

أعلام هذا التيار:

أعلام تيار [الجامعة الإسلامية] كثيرون، ومنتشرون بانتشار هذا التيار بالفكر، قد غطى أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي. وإذا تميز واحد منهم بمساحة فكرية عن آخر، وقد يتميز بعضهم بالأولوية أو بمساحة التجديدات التي أبدعها، أو تكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الأخرى، فإنهم في مجموعهم قد صاغوا الفلسفة العامة التي عرفت هذا التيار التجديدي عن غيره من التيارات.

■ وأول أعلام هذا التيار هو جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٣م]. عربي النسب، ولد ونشأ في بلاد الأفغان، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وعربي اللغة والفكر منذ نشأته الأولى، فقد تعلم العربية منذ عمره، كما درس علوم العربية والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية

والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة وفلك، ونظريات الطب والتشريح.

وهو سني المذهب في نشأته، توثقت علاقاته الشخصية والفكرية بعلماء الشيعة ومفكريها ومراكزها بالعراق، منذ صدر شبابه، مما بلور دعوته للتجديد واتسعت آفاق عقله فوصل بها إلى حيث أصبح فوق المذاهب التي عرفها المسلمين، لأن سلفيته هي التي تسبق المذاهب، وعقلانيته ترفض التقليد في سراديب الجمود التي شهدتها عصور التخلف والتراجع، مما يريد تحقيقه لأمته من نهضة وانطلاق.

وكان عدوا للاستعمار مفكرا، ولم يكن عداؤه الفكري والنظري فقط، بل انخرط منذ شبابه في العمل الوطني الأفغاني لدى وزارة الأمير محمد أعظم خان بمواجهة احتلال الإنجليز لبلاده في أفغانستان، ووصل جمال الدين في هذا النشاط الوطني إلى منصب الوزير الأول في البلاد، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الإنجليز الذين يتزعمهم الأمير شير علي، فلما انتصر حلفاء الإنجليز اضطر للسفر للهند سنة ١٢٨٥هـ ١٨٦٨م.

فلما ضيق عليه الإنجليز هناك ترك الهند إلى الوطن العربي، فوصل إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م ثم الأستانة ثم رجع إلى مصر فقام بها قرابة ثمانية أعوام ١٢٨٨ - ١٢٩٦هـ ١٨٧١ - ١٨٧٩م، كانت أخصب سنوات حياته الفكرية والنضالية، فيها تبلورت آراؤه ومذهبه في السلطة والثورة والتجديد.

معظمها أملى على تلاميذه الأصلي وتعليقات على شرح لـ كتب قديمة في الفلسفة الإسلامية. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا النوع من ألوان الفكر منذ أن ولت الدولة الفاطمية وحلت دور العسكر وتكايا الصوفية وخوانقهم والمدارس الأشعرية محل [دار الحكمة] و[مجالس الدعاة] ومنهاج [الأزهر] العقلاني.

وفيها نشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية، وكانت من قبله حكومية في الأساس، فكانت صحف [مصر] التي رأسها أديب إسحاق [١٢٧٢ - ١٣٠٢هـ = ١٨٥٦ - ١٨٨٥م] و[التجارة] التي رأسها سليم نقاش، طليعة الصحافة الشعبية في البلاد. وكان الأفغاني يكتب فيها بتوقيع «مظهر بن وضاح» كما كان يملي على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشبان جددت أساليب العربية في الإنشاء، وأحلت منها فن «المقال» الحديث.

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبي في السياسة، ومن قبله كان جوهر الدولة المصرية هو المصدر الوحيد للتغيير. وفيها كانت التربة الخصبة التي استقبلت بذور أفكاره [illegible] حيث نبتت ونمت واتسعت وآتت من الثمار ما لم تؤته في بلد آخر أقام فيه هذا الفيلسوف العظيم.

وفيها أنشأ [الحزب الوطني الحر] الذي جمع تلاميذه وأنصار دعوته، وهو الحزب الذي قاد الثورة العرابية، وبعد هزيمتها [illegible] نفر من بنيه لنشأة [الحزب الوطني] الذي قاده مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦هـ = ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] ونفر آخر منهم انضم

[illegible] [العروة الوثقى] [illegible] الأفغاني [illegible]
[illegible]

[illegible] [١٢٩٦هـ ١٨٧٩م] [illegible]
وهذا [illegible] الحركة حتى [illegible] هزيمة العرابيين [illegible] إلى
باريس [١٣٠٠هـ ١٨٨٣م] [illegible] إلى [illegible]
[illegible] [العروة الوثقى] [illegible] محمد عبده [illegible]
[illegible] العربية [illegible]
[illegible] [١٣٠٧هـ ١٨٩٠م] [illegible] [١٣٠٨هـ ١٨٩١م]
[illegible]

وفي كل هذه [illegible] الرجل [illegible] حركة [illegible]
حركة [illegible] على [illegible] والدعوة [illegible]
نفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين [illegible]
[illegible] الاستعمار [illegible] الذي [illegible]
[illegible] العرب [illegible] الإسلام [illegible] حتى [illegible]
السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م]
[illegible] [١٣١٠هـ ١٨٩٢م] [illegible]
[illegible] في قفص [illegible]
[illegible] إلى [illegible] [١٣١٤هـ ١٨٩٧م]

ومن [illegible] أعلام [illegible] الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] الذي [illegible] على الأفغاني [illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible] على [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ١٢٦١ - ١٣٣٢هـ / [illegible] - ١٩٢٠م

[illegible]

[illegible]

[illegible] الأزهر [illegible] محمد [illegible]

[illegible]

[illegible] في ١٢٨٨هـ /

١٨٧١م [illegible]

في التصوف الفلسفي [illegible]

[illegible]

وفي [illegible] الأفغاني [illegible]

[illegible] إلى التجديد [illegible]

[illegible] العربية [illegible]

[illegible] [العروة الوثقى] [illegible] الأفغاني [illegible]

[illegible]

[illegible] إلى مصر [illegible] السياسي [illegible]

إصلاح [illegible] والأوقاف [illegible]

[illegible]

[illegible] اللغة العربية [illegible]

[illegible] من [illegible]

عباس حلمي [illegible] الكثير من مشروعاته الإصلاحية [illegible]

جمود أغلب شيوخ الأزهر قد ضيع جهود الإصلاحية من بين يديه أراد لها في إصلاح الأزهر، حتى لقد مات كمدا بسبب هذا الإخفاق [١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م][1]

■ وفي المشرق العربي كان عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار. وهي الأفكار التي خلفها لنا في كتابيه [أم القرى] و[طبائع الاستبداد]

ولقد ولد الكواكبي في حلب لأسرة كان عميدها نقيب الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي [١٢٦٦ - ١٣٢٧هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٩م]

وفي [١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م] أصدر الكواكبي صحيفة [الشهباء] أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب. فلم يحتملها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عددا. فأصدر في العام التالي جريدة [الاعتدال]. ولقد أوصله نضاله إلى الحرمان من الوظائف وإفلاس التجارة وتعريض حياته للخطر. ثم قاده إلى السجن [١٣٠٣هـ - ١٨٨٦م] فلما اضطر العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية أطلقوا سراحه ثم عادوا لإلقاء القبض عليه ولفقوا له الاتهام بالاتصال بدولة أجنبية وحكموا بإعدامه. ولكن الجماهير عادت فضغطت فاضطر العثمانيون إلى إعادة محاكمته خارج الولاية فعرضت القضية على محكمة بيروت التي حكمت ببراءته.

---

[1] انظر [illegible] في مقدمة [illegible] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م

وفي تلك الأثناء كان الكواكبي قد أسس [جمعية أم القرى] وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السري بمكة والتي أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه [أم القرى] وفي هذا المؤتمر حضر ممثلو البلاد العربية والإسلامية وشخصيات إسلامية التي تعيش خارج العالم الإسلامي.

ولما ضاقت حلب بالكواكبي عقد العزم على قرار الهجرة منها إلى مصر فوصلها سنة [١٣١٦هـ - ١٨٩٩م] وفي مصر أفاد من المتناقضات كانت بين حكومتها ودولة الخلافة العثمانية فنشر كتابيه فصولاً في الصحف، ثم جمع الفصول فصدرت في الكتابين. ومنها قام برحلة في بلاد الجزيرة العربية وسواحل العربية، وشرقي أفريقيا.

وبعد نحو أربع سنوات في مصر توجه إلى ربه بمؤامرة دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد فكان استشهاده [١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م].

■ **أما في المغرب العربي** فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ / ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] بعد أن أمضى عهد شبابه وجل وجوده في موطنه قسنطينة بالجزائر ومنها تعلم علوم العربية والإسلام ومن شيوخه في تلك المرحلة أستاذه حمدان الونيسي الذي أخذ عليه عهداً[1] ألا يتوظف الحكومة الاستعمارية فالتزم العهد، وصار يأخذه على تلامذته فيما بعد.

(١) انظر [illegible]

وفي سن السابعة عشرة من عمره [١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م] رحل إلى جامع الزيتونة بتونس فدرس فيه ثم ترك ليستطيع أن يدرس بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي الذي كان يحرم العربية ويشتت السمات القومية للجزائريين كي يستخفهم ويجعل منهم فرنسيين مسلمين، ومن ثم يصبحون امتداداً فرنسياً عبر البحر المتوسط في القارة الأفريقية.

وفي [١٣٣٠ ـ ١٩١٢م] سافر إلى الحجاز، وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا إلى مكة والمدينة فعرض عليه بعضهم أن يجاور معهم الحرمين الشريفين، ولكنه كان شديد التفكير في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر فرفض الهجرة، وقال «نحن لا نهاجر»، وقبل عودته إلى الجزائر اتفق مع الشيخ البشير الإبراهيمي على خطة لتنفيذ البرنامج الذي لخصته كلماته هذه، وكانت الخطة هي إعداد جيل من الرجال الذين يواجهون محاولة المسخ القومي في الجزائر ويعيدون الجزائر إلى العروبة والإسلام وليكونوا رجالاً يملكون وضوحاً في الهدف وفكرة صحيحة يؤمنون بها حتى وإن كانوا ذوي عدد قليل ويعرفون حدود عملهم التي تنتهي عند تسليم الأمانة لجيل ثان يتولى الثورة ويستخلص الاستقلال من المستعمرين.

وقد مكث ابن باديس ثلاث عشرة سنة بعد هذا التخطيط عاملاً أن لا يوقف [illegible] وأن [illegible] صحة الرجال [illegible] في المساجد ويفسر القرآن ويعلم العربية للأطفال ويحارب [illegible]

والهدى وتحصيل العلم . واحتضنه به من [١٣٣١هـ - ١٩١٣م] حتى [١٣٣٦هـ - ١٩١٨م] تلقف من هؤلاء الرجال.

وعندما [illegible] أحمد [illegible] الاستعمارية بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر [١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م] [illegible] منذ [١٣٣٠هـ - ١٩١٢م] [illegible] [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] في [ذي الحجة ١٣٤٩هـ - مايو سنة ١٩٣٠م] [illegible] لعودة الجزائر إلى [illegible] العربية الإسلامية وتمهيد الطريق نحو الثورة المسلحة على الاستعمار.

وكانت الطرق الصوفية [illegible] الاستعمارية بالجزائر فحاربها ابن باديس منذ سنة [١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م] وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتيال [١٣٤٤هـ - ١٩٢١م]

وفي [١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م] [illegible] تحرير صحيفة [الصديق] ثم أصدر صحيفة [المنتقد] سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م وكان شعارها "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء" فعطلتها السلطات الاستعمارية بعد [illegible] صحيفة [الشهاب] [illegible] الشهيرة كما أصدر صحفاً أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء منها [الشريعة] و[السنة المحمدية] و[الصراط]

وقبل أن [illegible] في [ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ - [illegible] سنة ١٩٤٠م] كان قد وضع [illegible] الذي عاد إلى حصن العروبة والإسلام [illegible] الثورة

الصحيفة التي تمخضت عن ثورة [١٣٦٤هـ - ١٩٤٤م] [illegible]
[illegible] استقلال [illegible] الجزائري العربي المسلم
سنة [١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م] فصحيفة [illegible] التي [illegible]
[illegible] نحن [illegible]
حراس الإسلام والعروبة والقومية في هذا الوطن [illegible]
الإسلام والعروبة والقومية [illegible]
[illegible] حراس [illegible]
[illegible] [الجامعة الإسلامية] [illegible] في
بلاد المغرب العربي على الإطلاق.

هذه عن أبرز أعلام هذا التيار

والمناخ الذي تطور فيه

في مصر أكبر المجتمعات العربية الإسلامية [illegible]
[illegible] [الجامعة الإسلامية] [illegible]
الأفغاني [illegible]
[illegible] التي [illegible] الإسلامية
[illegible]
[illegible]
[illegible] الإسلامي [illegible]
[illegible] طريق [illegible]

لقد [illegible]
[illegible]

---

[1] [illegible]

للمجتمع حتى ظهور هذا التيار في سبعينيات القرن التاسع عشر وهو لم يتمثل فقط في إحياء الدولة بل تجلت فيه موقف المعارضة في الكثير من الأحيان. ولذلك فإن هذا التيار قد برئ من التغريب الذي طبعت به تجربة النهضة المصرية خاصة على عهد الخديو إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩م] بحكم إسلاميته وشعبيته. ثم هو بحكم موقفه التجديدي قد رفض جمود المؤسسات الدينية التقليدية تلك التي وقفت عند فكرية العصر المملوكي العثماني، وأسهمت بسلبيتها تجاه النهضة الحديثة في إسلام التجربة للتغريب. فكان أن اتسم فكر هذا التيار بسمة «الثورية» المميزة لحضارتنا العربية الإسلامية، عندما طرح بصورة شاملة المشروع الحضاري لمستقبل الأمة العربية الإسلامية.

لقد تجسد في تيار الجامعة الإسلامية بحث تجدد الأمة عن ذاتها وسعيها للنجاة من خطر الغزو الاستعماري بمنهج «باستقلال الحضاري العربي والمسلمين على غروب «التخلف المملوكي العثماني» والنجاة كذلك من «التخلف» المملوكي العثماني الذي تحول إلى قيد يعوق الأمة عن التصدي لعاصفة الاستعمار والتغريب.

وبقد تحول بحث أمتنا عن ذاتها في فكر هذا التيار إلى دعوة للتجديد الذاتي في الدين والدنيا تنهض فيها العقل بدور المصباح الذي ينير الطريق: طريق الدنيا وأيضاً طريق الدين. وصولاً إلى ثورة حضارية مستقلة تصنع تمدناً إسلامياً متميزاً، وتكون الطور العصري لحضارتنا التي ازدهرت في حقبة سابقة من التاريخ

إن أهل السنة لا يعني [illegible]

وفي [illegible] هذا [illegible]

[illegible] فكرهم [illegible] هذا الفكر

[illegible]

[illegible] هذه الأمة [illegible]

[illegible] الأمة [illegible]

[illegible] كون الإسلام هو أساس للنهضة [illegible]

يعني [illegible] هذا [illegible]

[illegible] كل [illegible]

هذا [illegible]

أبوابها [illegible] على [illegible] هذه [illegible]

[illegible]

[illegible] الأمة [illegible]

[illegible]

«الإسلام الدين» و«السلفية في الدين» [illegible]

[illegible] «الجامعة الإسلامية» المستقبلية والاستنارة والانفتاح

في [illegible]

[illegible] محمد عبده [illegible] الله [illegible]

حكم يعرف دينه وبأحدثهم بأحكامه [illegible] قد [illegible]

و[illegible] الكريم في [illegible] وما قرر الأولون [illegible]

الآخرون في [illegible] الأخرى [illegible] وهذا [illegible]

[illegible] الأوربيين [illegible]

(١) المصدر السابق [illegible]

ذلك أن للحضارة العربية الإسلامية موقفاً أصيلاً وقيماً يميز بين ما هو خارج عن الحدود والسمات التي تتميز بها هذه الحضارة وبين ما هو داخل في الأدوات التي تصلح سبيلاً للتصور الذهني وتقدمه وللاستدلال والنظر في الموجودات فالخصوصية والتميز لا تعني الانغلاق وسد المنافذ والأبواب دون التفاعل مع حضارات الآخرين. وقد عرض أبو الوليد بن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨م] لهذه القضية فقال إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك.

وسواء أكان ذلك الغير مشاركاً لنا أم غير مشارك في الملة فإن الآلة التي تصح بها التذكية لا يعتبر في صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة. وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام

لكن الشرط الذي لابد من تحقيقه حتى ينهض الإسلام بهذا الدور النضالي والبنائي في تحديد "دنيا" الأمة هو أن تتحدد هذه الدنيا فتنفصل محدودة عن الشرع والحرمات والمقدسات التي جعلته غريباً، لا نحو عقلنا بمقاربة بينه وبين حقيقته وجوهره كما يتقلده نبيه، عليه الصلاة والسلام عن الله سبحانه وتعالى فلا ولا من حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م. والتذكية هي الذبح.

الأغنياء والرؤساء الفقهاء الجهلاء يجعلون النظر في الدين نظر من لا يحتمل بغير الحق تصريح وبذلك يعتمدون المواقف المعطلة في الدين ويجعلونه من شروط السلطة [illegible] نظر عاد على كل من [illegible] [illegible] فيحتاج إلى محاذير يرجعون به في أصله للدين كما يقول عبد الرحمن الكواكبي (1)

فبالنسبة للعلاقة بين الدين و [illegible] [illegible] دورة [illegible] في تحديد [illegible] التي لا [illegible] [illegible] الاعتقاد واستمرارية المستقيمة المنفتحة على مختلف التيارات الحضارية [illegible] [illegible] لرأس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

الموقف الوسطي المتوازن

وبعد كل و [illegible] [illegible] [الجامعة الإسلامية] تمثل الموقف الثالث والوسطي [illegible] [illegible] الأستاذ [illegible] [illegible] [illegible] وقدرته في ذلك التدريج على [illegible] [illegible] [illegible] بالمؤسسات العريقة [illegible] التقليدية [illegible] [illegible] موقف [illegible] الفكر عند [illegible] العصر المملوكي العثماني في [illegible] وعن يسارهم دعاة التغريب الذين [illegible] [illegible] ووادهم [illegible] [illegible] واستهزائهم [illegible] [illegible] [illegible] للإسلام وتبرئته من الجمود والإمام محمد عبده يحكي كيف [illegible] [الجامعة الإسلامية] [illegible] الموقف الوسطي [illegible] فيقول وهو يترجم لنشأته الفكرية ومذهبه [illegible] [illegible] كيف نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من

(1) [illegible] [illegible] الكواكبي ص [illegible]

سكان مصر ونحلي فيه ما يدخلون. ثم لم ألبث بعد قطعة
من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون وما وقفت بي تلك
سوى مما لا يعرفون فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه
ونادين بأحسن مما وجدت ودعوت إليه. وارتفع صوتي بالدعوة
إلى تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف
الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى
ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي
وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه لتتم حكمة
الله في حفظ نظام العالم الإنساني وأنه على هذا الوجه يعد
صديقا للعلم باعثا على البحث في أسرار الكون داعيا إلى
احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس
وإصلاح العمل كل هذا أعده أمرا واحدا

وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين
يتركب منهما جسم الأمة

- طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم
- وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم

ثم يتحدث الإمام محمد عبده عن موقفه من [illegible] الذي
[illegible]
ولا [illegible] الأمة [illegible] الدعوة [illegible]
في كثير مما ذكر [illegible]

[illegible] محمد عبده [illegible]

فنحن هنا بإزاء موقف [illegible] وموقع [illegible]
بتوسطيين [illegible]

[illegible] السلفية [illegible] إلى [illegible]
على طريقة [illegible] الأمة [illegible]
[illegible]
[illegible] التي [illegible]
[illegible] موقف [illegible] لم [illegible]
[illegible] والموقف [illegible]
التي ينتقد صراحة هذا اللون من السلفية [illegible]
[illegible] أصول [illegible]
[illegible] وتحولوا عن [illegible]
[illegible] وليس [illegible]
[illegible] إلى ما تقتضيه الأصول التي [illegible]
عليها [illegible] وإنما [illegible]
يكونوا [illegible] ولا [illegible].

وعلى [illegible] السلفية [illegible] موقف
[illegible] على موقفها [illegible]
[illegible] الإسلامية [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] العقل [illegible]

[illegible]

بعقول [illegible] لا يقبل به العجز [illegible] العصر [illegible] يكون [illegible]

[illegible] عطر في الأكوان طولها وعرضها وحتى [illegible]

[illegible] في تصنيف دون تعقيد [illegible] في كتابه [illegible]

والحق [illegible] لا [illegible]

مصر [illegible] وصدق [illegible] كتبه الإسلام [illegible] جوهر [illegible]

ترك كتبهم تراثاً للأثرية [illegible]

حتى أصبحت الآن بعد [illegible] اسم [illegible].

والقرآن وهو وحده المعجزة الباقية [illegible] قد دعا الناس إلى

النظر فيه بعقولهم فهو معجزة عرضت على العقل وعرفته

القاضي فيها وأطلقت له حق النظر في أنحائها ونشر ما انطوى

في أثنائها فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي

والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك

بخوارق العادة ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ولا يخرس

لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية

[illegible] لا يكون [illegible] عقل دينه وعرفه بنفسه حتى [illegible]

[illegible] على [illegible] بغير عقل [illegible]

[illegible] غير [illegible]

[illegible]

وتذكي نفسه [illegible] لله والاعتراف [illegible]

[illegible] به الحد [illegible] لله [illegible]

عاطفته وروحه مصرية في دينه [illegible]

[illegible]

ولقد كانت هذه العقلانية الإسلامية عاملاً من عوامل تمييز تيار [الجامعة الإسلامية] لا عن الفلسفة المادية والوضعية وحدها، بل وعن أهل الجمود الذين يقصرون توحيد الله على نفي [illegible] مسلوبة لإنكار [illegible] الاستناد على [illegible] السببية ولإنكار وجود القوانين الكونية والطبيعية الثابتة والحاكمة في الكون والمجتمع.

كذلك كانت عقلانية هذا التيار مميزة له عن تيار «التغريب» الذي تبنى نفر من قادته مادية الغرب الفلسفية تلك التي حين [illegible] سلمت بوجود السنن والقوانين الثابتة في الكون والمجتمع بصورة تنفي الألوهية والوحي والرسالات.

فبهذه «العقلانية الإسلامية» جدد تيار [الجامعة الإسلامية] نظرة الإنسان المسلم [illegible] عندما أقام [illegible] بين «التوحيد» — الألوهية — وبين «الطبيعة» [illegible] السنن [illegible] والعلية والارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات [illegible] وعندما ميز بين مهام الرسل والوحي وبين عالم العقل [illegible] [illegible] إلى أن «حاجة العالم الإنساني إلى الرسل هي حاجة روحية وكل ما لامس الحس منها فالمقصود منه الروح [illegible] المعنوية، [illegible] في وجود [illegible] [illegible] إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم [illegible] [illegible] الرسالات فيه إلا من جهة العظة العامة والإرشاد [illegible] الاعتدال فيه كي لا [illegible] زيادة على الاعتقاد، ولا يصيبه [illegible] في نفسه أو عرضه [illegible] [illegible] حقيقة [illegible]

و[illegible] ولذلك فأصحاب هذه الطريقة [illegible] من [illegible] [illegible] لأنهم من

علم الطبيعة [أي الحكمة] وجوانب الحكم شيئًا في الاستنباط [illegible]

ليس معرفتهم [illegible] [illegible] ولا يتوقف على [illegible] وإنما تذكر

ظواهر الطبيعة من [illegible] الأعمال والأسباب لا [illegible] تصرف

العقل إلى البحث الذي يقوى به الفهم [illegible] لا تعرف بقواعد

الطبيعية ولا [illegible] خاص في الحقيقة

فتبدو العقلانية الإسلامية [illegible] [illegible] «السلفي

العقلاني - المستنير» عن «سلفية البداوة النصوصية» وعن

«أهل الجمود» [illegible] وعن «دعاة التغريب»

■ فأنصار «سلفية البداوة النصوصية» [illegible] عن [illegible]

والتصورات والمعتقدات [illegible] [illegible] بدعة وحرام [illegible] لكنهم

وقفوا عند ظواهر النصوص ثم هم لم يكونوا للعلم [illegible]

ولا للمدنية أحباء

■ و«أهل الجمود» لا يعقلون من الأمر [illegible] إلا [illegible]

[illegible] الفقهية [illegible] العقل على نهج [illegible] كم

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] كما [illegible] الأستاذ الإمام محمد عبده

١ [illegible]

٢ [illegible]

[illegible]
العرب [illegible] واصبحت [illegible]
[illegible] التي [illegible] على [illegible]
و [illegible] كذا الاستقلال [illegible]
[illegible]
[illegible]
ويحكم [illegible]

و [illegible] على [illegible] طريق [illegible]
[illegible] على [illegible]
من [illegible] إلى بلاد العربية [illegible]
العلوم [illegible] والآداب [illegible] وهو في
الحقيقة [illegible] على [illegible]
الاجتماع الإنساني [illegible]
[illegible] بأنفسهم [illegible] على [illegible]
[illegible]
[illegible]
ومنهم [illegible] وصناع [illegible]
المآكل والملابس [illegible] في
تطبيقه على [illegible] وعدوك
من [illegible] فهو [illegible] في [illegible]
[illegible] الصنائع من [illegible] الأمة [illegible]
[illegible] من [illegible]

تبقى الدعوة وفي التعريف كلية حرة لا تنفك لأنه
يشوه وجهها ويحط منها ويفقدها الاستقلال الحضاري

* * *

و... كانت السلطة السياسية القائمة في رأس الدولة
[خليفة أو إماماً في مؤسسات الدولة قد كانت في العصر
العباسي الثاني بعيدة عن روح الإسلام وهي قائمة
ارتبطت بالسلاطين المتغلبين وما كان فيهم هؤلاء السلاطين من
أهل الحكم [illegible] بعد التعريب مرفوضون [illegible] العقيدة
العربية التي تفصل الدين عن الدولة على النحو الذي ضعفت
وزن في عصر نهضتنا وإحيائنا ويوشك أن يبدأ الجامعة
الإسلامية قد سعى إلى تحديد بصره للنسيج في المجتمع والدولة
يرفض وحدة السلطتين الدينية والزمنية ويجب أن يرفض
فصلهما وأن يقيم تمييزاً بينهما ويقصر علاقتهما على شئ لا
يرقى بها إلى الوحدة ولا ينتهي إلى حد الانفصال [illegible] وقال
بتأسيس النهضة على مبدأ تحرير مؤسسات الدولة من
الصبغة الدينية فالدولة إسلامية وكذلك المجتمع والحضارة
لكن السلطة في هذه الدولة مدنية لأن مصدر السلطات في
المجتمع هو الأمة والحاكم نائب عنها ومسئول أمامها ومحكوم
بها ومقيد بقواعد الأمة والحكومة [illegible] الشريعة الإلهية
في ذات الوقت وليس هذا الحاكم ظلاً لله ولا سيفاً مسلطاً على
رقاب عباد الله

فهذه شئون دنيوية بشرية وليست إلهية
ومصدرها عقل الأنبياء والبشرية لا سنتها التي تحكمها.
[illegible] بمقاصد الشريعة، وليس مصدرها مرسلات الرسل
والأنبياء. وكما يقول الإمام محمد عبده: إن كل ما يمكن
للإنسان أن يصل إليه بنفسه، لا يحتاج الأنبياء لبيانه
ومصالحهم به خير ما تصلهم وتفيدهم. فالعقل والقوى التي
وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك. وقد أرشد النبي [illegible] إلى
وجوب استقلالهم دونه في مسائل دنيوية في واقعة تأبير النخل
إذ قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»(١). والإسلام لا يرضى فصلا
عن أن يسعى نحو ما كانت عليه أوربا [illegible] في عصورها
الوسطى والحديثة عندما «كانت السلطة الحاكمة مدنية وسلطة
دينية في نظام واحد لا فصل فيه بين السلطتين. فقد انحصرت
من النظام هو الذي [illegible] بعض البابوات وعمالهم من رجال الكنيسة
على [illegible] لأنه أصل من أصول [illegible] المستحبة عندهم وإن
كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم
فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من
الوجوه. [illegible] من يرمون الإسلام بأنه يجمع بين السلطتين
في شخص واحد. ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة
الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر وهي
سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما
خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم. وليس يقولون إن لم يكن

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده [illegible]

لحسابه دون السلطان الديني الذي يكون للخليفة أو للمفتي
أو شيخ الإسلام فهو [illegible] الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة
على العقائد وتقرير الأحكام وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء
فهي سلطة مدنية [illegible] أصلا من أصول الإسلام [illegible]
[illegible] قلب السلطة الدينية والانتشار عليها من [illegible] بعد هدم
الإسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند
الجمهور من أهله اسم ولا رسم [illegible] كما يقول الإمام محمد عبده

فلا [illegible] أهل [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] التعريف [illegible] الدين عن [illegible]
[illegible] الفصل بين الديني و[illegible] على
الإسلام وتقرير [illegible] للسلطة السياسية في المجتمع [illegible]
الأمة [illegible] سلطات [illegible]

وعند [illegible] [illegible] في
المجتمع [illegible]
[illegible]
الإسلامية [illegible]
[illegible]
[illegible] الإسلامي [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

الإرهاب، وقوة الجند [illegible]

[illegible]

[illegible] وقوة الأمة على الصمود [illegible] وقوة
[illegible] الأنصار [illegible]

[illegible] في حديثه عن الشورى [illegible] والحكم [illegible]
وحكم [illegible]
[illegible]

■ ففي الدين [illegible]
[illegible]

■ وفي [illegible]
[illegible]
[illegible]

ويمضي [illegible] على الإسلام [illegible]
[illegible] الأبواب [illegible]
[illegible] الإسلامية [illegible]
[illegible]

■ وفي الدولة [illegible]
[illegible] الحكم على الشورى [illegible]
[illegible] الإسلامي [illegible] الاستبداد [illegible]

العروبة المتميزة في المحيط الإسلامي:

[illegible]

(١) [illegible]
(٢) انظر [الأعمال الكاملة لجمال الدين [illegible]] ص [illegible]

الإسلامية] موقف [illegible] العرب [illegible] مصر تعتبر العرب فئة في المحيط الإسلامي بل وعقد لبعض العناصر في هذا المحيط لا يستطيعون هذا [illegible] ويستنكرون [illegible] ويستنكرون [illegible] توحيد الفكر [illegible] عقيدة [illegible] الجامعة الإسلامية (١) تحرر [illegible] في [illegible] الجامعة [illegible] قصد.

لكن يقول [illegible] هذا الرأي لا يعدو [illegible] يكون [illegible] من قصر النظر وسطحية الأمور [illegible] من شكل [illegible] الذي يصبه هؤلاء من قبيل الفكر والمواقف التي [illegible] [الجامعة الإسلامية] [illegible] الموضوع.

[illegible] **لقد علمنا، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية [أي قومية] إلا في دينهم واعتقادهم»** [illegible] الاعتصام [illegible] الرابطة الدينية التي هي أحكم [illegible] التركي بالعربي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي وقامت لهم **مقام الرابطة النسبية** [illegible] الذي يقول: إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها والأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان مما لا **يحتاج معه إلى دليل أو برهان**

وفي الوقت الذي عارض فيه الأفغاني الدعوة لقيام رابطة [الجامعة الإسلامية] بقيادة السلطان العثماني عبد الحميد

(١) المصدر نفسه، ص [illegible] ٣١
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣١

... [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] يتحدث عن [illegible]
الإسلام حين تحدى الاستعمار الأوروبي كان [illegible]
الدولة [illegible] بين مخالب الاستعمار، وتحويل الترك بواسطة
اللغة والحضارة، إلى جزء من الأمة العربية، فكتب عن هذا
[illegible] العثماني [illegible] يقول: لقد اتجه الأتراك من عطيف
وهو اتخاذ اللسان العربي لسانا للدولة والسعي لتعريب
الأتراك وأنت تعلم العكس إذ فكرت بتتريك العرب ومن أسفههم
سياسة وسقمه من رأي فكيف نعقل تتريك العرب وقد سارت
الأعاجم في الاستعراب وسابقت وكان اللسان العربي لغير
المسلمين ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر إنها لو
تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ولم يبق داعي للنفور
والانقسام وصاروا أمة عربية [illegible] واحدة

ومحمد عبده وهو المهندس الأعظم لمدرسة التجديد
الإسلامي [illegible] [الجامعة الإسلامية] هو القائل عن
الإسلام [illegible] السلطة و[illegible] عربية [illegible] كان
الإسلام عربيا ثم لحقه العلم فصار عربيا بعد أن كان
يونانيا

تلك هي [illegible] التي [illegible]
[illegible] الأمر كذلك فكيف نستقيم الحديث عن أن المسلمين لا
[illegible] مع الحديث عن [illegible]

١ [illegible]
٢ [illegible] ص ٣١٢

الأمة العربية في عرف هذا الفكر [illegible] ... إلى
تعرف بكونها مجتمعاً جزءاً من الأمة العربية [illegible]
الإسلام ربما عرفت.

إنها ليست متناقضات بل هي الفكر السياسي الذي ولد به تيار الجامعة الإسلامية بين الخصوصية المقومة للعرب كأمة بالمعنى القومي في محيط إسلامي [illegible] تربطه بالإسلام الدين ومن [illegible] وجامعة العقيدة والثقافة التي جمعت كل من يدين بهذا الدين وفي هذه الموازنة تكمن عبقرية هذا التيار في هذا الشأن.

فبين الأمة والمسلمين رابطة [illegible] الإسلام وممثلة في [illegible] الإسلامية لكن هذه الشعوب الإسلامية [illegible] وتنتمي [illegible] في العوائد والأخلاق وتحت هذه [illegible] واسعة والأخلاق [illegible] وتقتصر [illegible]

[illegible]

أرجو أن يكون مستقبل جماعتهم القرآن ووجهة وجدانهم عبر وكل ذي ملك على ملك يسعى بجهوده لحفظ الآخر من الإساءة في حمايته الخاصة، ونفوذه [illegible]

فهي رابطة الجامعة الإسلامية والأخوة الإسلامية بين الأمم الإسلامية التي تقوم وحدة كل منها السياسية المؤسسة على رابطتها القومية التي تميزها في المحيط الإسلامي الأكبر والأوسع. فهي جامعة إسلامية وجنسية "قومية" إسلامية قوامها رابطة الأمة والاعتقاد. وهي محيط تتميز فيه الأمم والقوميات بالمعنى القومي الأخص المؤسس على استمرار القومية المتميزة في إطار المحيط الإسلامي الكبير.

وعند ابن باديس — وهو إمام النضال الجزائري — نجد للجامعة الإسلامية تحديدًا واضحًا كاملاً في تصوير العلاقة بين الأمة العربية المتميزة قوميًا وبين الأمم الإسلامية. فالعروبة عند العرب أمة في القومية وفي السياسة. والوحدة السياسية بمعنى وحدة الدولة أمر [illegible] وحد بين من يتمتعون بهم بالاستقلال عن منطق نفوذ الاستعمار ومخططاته. من الأمم التي تجمعها رابطة الأمة والاعتقاد الديني دون رابطة العروبة القومية. فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة في النواحي الأدبية والاجتماعية دون السياسية. ومن ثم تكون الدولة الواحدة [illegible]. ويقول ابن باديس: "إذا قلنا العرب، فإننا نعني عدد الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقًا إلى المحيط الأطلانطيقي غربًا والتي تنطق

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥

بالعروبة ونفكر بها ونسعى من تاريخها ونحس مقدار عظمها من دمها وقد صيرتها العصور في بوتقة التاريخ حتى اصبحت امة واحدة هذه الامة تربط بينها [illegible] على [illegible] اللسان [illegible] ورابطة التاريخ، ورابطة الألم [illegible] فالوحدة القومية والادبية متحققة بينها لا محالة [illegible] الشعوب العربية المستقلة يمكن الوحدة [illegible] بل [illegible] المسلمون الذين تتوزعهم عدة قوميات فان علاقتهم [illegible]

- ناحية سياسية دوليه
- وناحية ادبية اجتماعيه

فاما الناحية السياسية الدولية [illegible] منهج المستقلة [illegible] الادبية الاجتماعيه فهي التي [illegible] يهتد بها كل الامم الاسلاميه [illegible] مهمة جماعه المسلمين [illegible] اهل الحل والحرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين [illegible] والادبية ».

هكذا [illegible] و [illegible]

ونقد [illegible] [[illegible] الاسلاميه] [illegible] القومي للامة العربية في المحيط الاسلامي على اسس عرقية او عنصرية [illegible] هذا [illegible] موسسة على [illegible] [illegible] والاقليم والعادات والتقاليد و [illegible] [illegible] هذه [illegible] مكة الاخلاق [illegible]

(١) [كتاب اثار ابن باديس [illegible] ٢٩٨ [illegible] ٤١١ [illegible] طالبي طبعه الجزائر سنة ١٩٨ [illegible]م

شعور العصبية [illegible] ومعه [illegible] معنوي علاوة على التأثير [illegible] التي تجمع [illegible]

الأمة العربية [illegible] حتى تصبح [illegible] للأمة [illegible] القومي [illegible] وحدتها [illegible]

المفروضة على وطنها القومي من [illegible] فكم رأيت [illegible] ولا [illegible] تلك الغير [illegible] على [illegible] [تعنيها] محكومة

وترقبت الفرص ونهضت بعد [illegible] وجمعت من [illegible] على ذلك [illegible] هو اللسان [illegible] سواه، [illegible] وطلوا في [illegible] إلى [illegible] الله

والإعلام [illegible] النبوي للعروبة، [illegible]

[illegible] يا أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد [illegible] وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي

وهذا [illegible] في [illegible] الدعوة إلى دور قائد للأمة العربية [illegible]

■ [illegible]

[illegible]

■ والإمام محمد عبده رأى أن عظمة هذه الأمة قد تحققت عندما [illegible] الإسلام عربيا [illegible] [illegible] عن [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] الإسلام وانقلب أعجميا [illegible] [1]

■ والكواكبي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] الإسلام [illegible] [2]

■ [illegible] يرى أن العرب [illegible] [illegible] الأمم التي تدين بالإسلام [illegible] [illegible] [illegible] الإسلام [illegible] [illegible] الإسلام والعروبة [illegible] الإسلام [illegible] الأمة العربية [illegible] الإسلام [illegible] العربية [illegible] واحد [illegible] القومية العربية [illegible] [illegible] عليها [illegible] كما [illegible] [3]

هكذا [illegible] موقف [illegible] [illegible] الإسلامية [illegible] العروبة [illegible] العرب [illegible] [illegible] قومي

(١) [الأعمال الكاملة] للإمام محمد عبده [illegible]
(٢) [الأعمال الكاملة] [illegible]
(٣) [كتاب آثار] [illegible]

العربي بالمحيط الاسلامي [illegible] علاقة [illegible] عند
العروبة [illegible] الاعنف [illegible] كل [illegible]
[illegible] ولقد [illegible] الى [illegible] الاسلامية
[illegible] مع العنصر القومي الذي هو [illegible] كما
[illegible] في [illegible] الاسلامي [illegible]
[illegible] قائد للامة العربية في المحيط
الاسلامي سواء في [illegible] او في النهضة التي تحدد للعرب
[illegible] انهم [illegible] الذي [illegible]
تاريخيا عن امم وحضارات اخرى

حضارة جديدة.. ومتميزة:

لقد [illegible] الاسلامية [illegible] الاستعماري
الاوربي [illegible] التي [illegible]
التي تعرض لها [illegible] العروبة خلال هذا الصراع التاريخي
الطويل فالغرب يريد ان يحرز النصر على الجبهة الحضارية
باحتواء العرب حضاريا حتى [illegible] الصراع بالنصر
حاسم ونهائي ومن ثم فهو وقد عاد [illegible] لمرة [illegible]
الصناعية وثمارها [illegible] من الدول [illegible]
وبالحضارة الاوربية [illegible] على [illegible] الكوكب
الذي يسكنه الانسان يريد الا تظل حضارته [illegible]
حالية الاوربية ومستوطنة فقط في مستعمراته العربية
والاسلامية وذلك كي لا تتكرر قصته القديمة يوم رأت حضارته
[illegible] الاستعمارية [illegible] وطنية

وبريطانية. وسواء كانت السبل هي القهر بالمسخ القومي

والسحق للهوية الحضارية كما حاول الفرنسيون بالجزائر

أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها

وكما صنع الإنجليز في مستعمراتهم فإن الهدف واحد [illegible]

وهو أن يسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية

المتميزة فيصبحوا غربا [illegible] التي تكرس

انتصار الغرب في هذا الصراع الحضاري الطويل وفي خضم

تلك [illegible] الاستعمارية [illegible] عن

هذا الصراع الحضاري بين الحضارة [illegible]

[illegible] وبين الحضارة العربية الإسلامية

التي [illegible] كما [illegible] إلى [illegible]

[illegible]

في [illegible] الإفريقي تونس [illegible]

[illegible] عنه شاتوبريان [illegible]

[illegible] ومن الماضي [illegible]

وحتى لا [illegible] هذا الهدف [illegible] قديم وحديث

كانت دعوة تيار الجامعة الإسلامية [illegible]

والإسلامية، تجديدها وليس التخلي عنها [illegible] ففي

الوقت الذي تصدى فيه هذا التيار [illegible]

العصور [illegible] على حركة الأمة [illegible]

للغزوة الاستعمارية الأوروبية كاحتلال عسكري [illegible]

[illegible]

تعني كذلك بعثة خلاقة لحضارة العرب هذه الحضارة العربية الإسلامية التي لم تكن ضرورية التي تعتمد المؤسسات التغلب به بوجه تعري [illegible] الأجنبي [illegible] وتبعث على الاحترام

وقد انطلق هذا المفكر في دعوته لتجديد هذه الحضارة من عدة منطلقات نجملها ونرتبها حسب ورودها

١ - الجزائر أمة عربية ولحضارتها مزاج مميز [illegible] وتعتبر هذه الحضارة بأسلوب [illegible] المتعصبات ومطلب [illegible] في مواجهة [illegible] عدد من طرف واحد من طرفي الظاهرة [illegible] حربية، وتخصصه من مخاطر وأخطار بشكل منها الأحرى

٢ - إن المزج الحضاري المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة ومقومات هذا التكوين وإن كانت الأمة [illegible] عرفت حضارية وتراث على وجود [illegible] في التاريخ الإسلامية وصراعاتها الحضارية [illegible] من [illegible] الحضاري [illegible] والقدرة بها تحت [illegible] الأجنبي

[illegible] ذلك حتى لو أراد [illegible] مخلصين كانوا أم مخادعين[1]. وبعبارات ابن باديس عن العروبة الحضارية أي [illegible] للجزائر عن فرنسا [illegible] إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت

٣ - إن الدعوة إلى الحضارة العربية الإسلامية [illegible] لا تعني تقديس الماضي ولا العودة إليه كي نعيش في [illegible] ولا الأخذ بحمية أصولية وإنما [illegible] هذه العودة هو الأخذ

[illegible] الأصول التي [illegible]

[illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible] العطاء المعاصر [illegible]

[illegible]

[illegible] لم تتجدد في [illegible]

[illegible] على عكس [illegible]

[illegible]

تفتح صفوة مستنيرة نمط حضاري مغاير ومنخرط في العمل

[illegible] ومن ان تدخل الامة عصر تجديد حضاري

الخاصة، الممثلة لذاتيتها، والمجسدة لخصوصيتها القومية

مسوقة الى ذلك بقيم وافكار ومواريث لبا في نفوس وضمائرها

[illegible] المؤسسات [illegible]

[illegible] علاوة على [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الصبور في مطلع القوة لدفع الكوارث انما يرمز به [illegible]
[illegible] الصور التي كان عليها [illegible] السرقسي وسلافهم

وهذه الصور [illegible] الدائب [illegible] كما يقول محمد عبده هو
في [illegible] الأزهر [illegible] وفكرة حركة الإصلاح [illegible]
و[illegible] [illegible] لانه
[illegible] [illegible]
[illegible] [illegible]
و[illegible] الأمر [illegible] الاصول التي [illegible] دعوته
في [illegible] [illegible] على [illegible]
في [illegible] [illegible] الصحيحة
للاسلام [illegible] وقد [illegible] محمد عبده [illegible] الاصلاح في
[illegible] لا [illegible] قال [illegible] من طرق الادب والحكمة
لقارئه عن صفة ادبية يحوجه الى بناء بناء جديد ليس
عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد من عماله احدا
وقد كان الدين كفيلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل
النفوس على طلب السعادة من ابوابها ولاهله من الثقة فيه ما
ليس لغيره وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه اخف من
احداث ما لا إلمام لهم به فلم العدول عنه الى غيره"

وتتمسك [illegible] الصور [illegible] والروح العصرية بالامة العربية
الاسلامية لا تعني في رأي اعلام هذا العصر الرجوع بالمجتمع

١ [illegible] الاعمال الكاملة [illegible] ص ٣٢ .
٢ الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ج٣ ص ٢٢١

في الماضي فقد عاب على [illegible] كما [illegible]
[illegible] موقف عمر [illegible] وهذا
لا يعني الاكتفاء [illegible] وعلوم [illegible] في النهضة
والإصلاح ولا [illegible]
الإصلاح [illegible] الإصلاح [illegible]
[illegible] مع الارتباط والاتصال [illegible]
تحويل الأمة إلى [illegible] الحضاري [illegible]
يعني أن التجديد الحضاري هو [illegible] الإصلاح [illegible]
محمد عبده [illegible]
[illegible] قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى [illegible]
[illegible] الأولون وما كسف الآخرون في [illegible]
[illegible] ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم

[illegible]

[illegible]

٤ [illegible] الإسلامية [illegible]
[illegible] العصور المملوكية [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

ى عمل ما لم يشارك فيه الحسين

[illegible]

فالاعتراض هنا ليس على سر عودة اسرار ستعود تعربي
لتمييز بين الضروري النافع و الضار عن الملائم،
للاستفادة بالاول بالمعنى الطبيعي والصحي مع نحس الثاني
ورفضه فمن فمن صنع الغرب بعد دون حدود من موقف
المستقل وموقع القادر على التمييز عن الغرس والشهود
وليونان كي تتحقق الذاتي والجديد والتمييز وبعد الاعتراض
على تقليد المتميز لدى الافراد لاسباب ثقة بالذات
والقدرة على التمييز

فالتميز الحضاري هو حقيقة واقعة تعود الى
مصر بكل حضارة من خصوصية وهذه خصوصية لا تنفي
وجود ما هو عام ومشترك انساني بين كل الحضارات
وفتح نوافذ على مختلف الحضارات بحث يكون وعدم هو
خاص وما هو عام ومن عن العقلي وعن المعنى
لا ... العربية في ... لا تحتجب ولا ...
وبهذا الفهم ... لخصوصية ... الاولى ...
كما يقول الافغاني في الحقيقة ...
فيها على ... وسر الاجتماع الانساني ...
يقدور هذه الخصوصية ... فاسد وفق
عبارة الافغاني يقول ...
مصانع من قومهم ... الامة ...
من شانها فلقد علمتنا التجارب ... المتصفحين من كل امة
المتحيز اطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الاعداء اليها

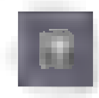
وطلائع جيوش التبشير وأرباب الغزو يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم.

[illegible]

وهذا المنظور الحضاري الإسلامي يعني رفض التبعية الحضارية ولا يصدق أمام عبقرية الحضارة العربية وعروبة الفكري واستقلالها عنه لا يعني الانغلاق الرافض لاستلهام مصادر القوة في العلم والتقدم للنهضة المستقلة والمتميزة لحضارتنا العربية الإسلامية. فرفض التبعية لا بد أن يقترن برفض التقوقع والعزلة والانغلاق. فالمعادلة الحضارية حقيقة من حقائق الواقع. واكتفاء حضارة ما بذاتها عن غيرها من الحضارات هو خرافة من الخرافات.

على هذا النحو فكر تيار اليقظة الإسلامية ووضع أئمته معالم مشروع النهضة الحضارية المستقلة [illegible] من تصوره ويضعه على الممارسة والتطبيق

[illegible] ص ١٠٠ - ١٠١



الموروث .. والوافد

تاريخ القضية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفكرية في بداية الغزوة الاستعمارية الحديثة للشرق ووطن العروبة وعالم الإسلام على وجه التحديد فلسفة. هذه القضية من أبرز قضايا المواجهة الفكرية التي جاءت بين في فكر هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة منذ غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وحملته على مصر سنة ١٧٩٨م لأن البعثة العلمية وكانت منظمة وكان المفكر محمد [illegible] مع هذه الحملة [illegible] مفكري مصر بهذه الغزوة الحديثة عن سابقتها الصليبية التي داهمت الشرق في العصور الوسطى [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] فالصليبيون كانوا فرسان إقطاع همج لا يملكون سوى ثقافة السيف، وكما يقول أحد المؤرخين العرب الذين عاصروا تلك الغزوة الصليبية - وهو أسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨م] عن الفرسان الصليبيين هؤلاء كانوا كالبهائم ليست لهم فضيلة إلا القتال [illegible] المروج كانوا فرسان الإقطاع جاءوا من مجتمعات متخلفة ومتخلفة بالمقاييس الحضارية. وبالتالي فقد تعلموا من الشرق الإسلامي ولم يكن لديهم فكر يغزون به هذا الشرق [illegible] [illegible]

[illegible] حين كان الشرق العربي الإسلامي هو المتقدم حضاريا.

ولقد [illegible] هذا الاحتكاك العنيف بين غزوة الصليبيين وبين الشرق المتحضر [illegible] في تلك المرحلة [illegible]

ومؤثرات وسببا للنهضة الأوربية فيما بعد لأنهم قد تعلموا من الشرق أثناء هذا الاحتكاك العنيف كما تعلموا من احتكاكهم السلمي والعنيف بحضارتنا على أرض الأندلس.

أما الغزوة الاستعمارية الحديثة التي تعرض لها وطن العروبة وعالم الإسلام فلقد تميزت عن الغزوة الصليبية لأنها جاءت، ليس فقط بالمدفع والبارود والجيش المنظم بتنظيمات حديثة وليس فقط بالشركات الرأسمالية والنهب الاقتصادي الاستعماري المنظم، وإنما جاءت أيضا بفكرية الحضارة الغربية فكرية عصر النهضة الأوربية هذه الفكرية التي تألقت وأبدعت في مختلف مجالات العلوم والفنون. كانت هذه ميزة تميزت بها هذه الغزوة الحديثة. ومن هنا كانت حملة بونابرت شاملة للقوة والفكر معا. وكذلك كل حال كل الحملات الاستعمارية التي جاءت بعد ذلك التاريخ لتخضع الشرق لهيمنة الاستعمار الحديث.

لقد شاهدنا منذ ذلك التاريخ ما يسمى بفكرية التغريب وتيار التغريب والمتغربين. إن الحضارة الغربية على عكس الحضارة العربية الإسلامية، قد نهجت نهجا سلبيا استعلائيا وعدوانيا في كل المجتمعات التي غزتها. فنحن نعلم أن العرب المسلمين عندما فتحوا البلاد التي فتحوها، قد احتضنوا المواريث الحضارية القديمة. فالمواريث التي كانت قد هجرت وماتت أحيوها وحللت هذه المواريث واستخدموا الصالح للعطاء من هذه المواريث في نسيج الحضارة العربية الإسلامية الجديدة. أما الحضارة الأوربية الغربية فلقد مارست

سياسة نسخ ومسخ والتشويه مع الموازين الحضارية للشعوب والبلاد التي غزتها هذه الغزوات الاستعمارية الغربية. فكما صنعوا مع الهنود الحمر أرادوا وحاولوا أن يصنعوا مع الموازين الحضارية للشعوب الإفريقية وفي آسيا وفي كل البلاد التي غزوها. فهذه الغزوة الفكرية التغريبية أرادت لهذه الشعوب المستعمرة أن تتحول لا إلى الحضارة الغربية كما زعموا ويزعمون فهم لا يمكنون هذه الشعوب من أن تصبح مثلهم في الحضارة بامتلاك مصادر القوة في الحضارة الغربية وهي كثيرة وعديدة، وإنما أرادوا أن تتحول هذه الأمم وهذه الشعوب إلى «هامش حضاري» مجرد «هامش حضاري» في موقع «التبعية الحضارية» للمركز الأوروبي. وكان الهدف ليس تحضير هذه البلاد ونهضتها؛ لأن الاستعمار بداهة ليس حريصًا على هذا الهدف وهذه الغاية، وإنما كان الهدف هو أن يصبح العقل عندنا تابعًا «للمركز الأوروبي» والغربي؛ لأن هذا هو السبيل الأمثل والأضمن لتأبيد بل وتأبيد الغزوة الاستعمارية والنهب الاستعماري. وهذا هو الضمان الرئيسي كي نتحول إلى «هامش أمني» يحمي من «المركز الأوروبي» والغربي. فكان سعي هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ليس فقط إلى أن نصبح موقعًا لأمن الغرب وليس فقط إلى أن نصبح سوقًا ويدًا عاملة رخيصة لاحتكارات الغرب الرأسمالية وإنما أيضًا وحتى يدوم ويسود هذا لابد من تكبيل هذا العقل في الوطن العربي والإسلامي بقيود التبعية الفكرية لقد وقفوا موقف العداء من «خلافنا الحضاري» لهم و... خلافنا

الحضاري عليهم وكل ما هو علينا به من حرية في «الخلاف» و «الاختلاف» هو ان نختلف خلافهم ونعتقد نفسيتهم فنكون محافظين في محافظتهم» و«ليبراليين في ليبراليتهم و تقدميين في تقدميتهم و«شيوعيين في شيوعيتهم فلا نخرج عن اطار التبعية والاحتواء. لقد كان هذا هو الخيار ... ن خارج ان نبقى خيار الذي سمحوا به لعقلنا حتى بعد تسلخ الثقافة للغرب هدفا تسعى اليه المستضعفون وصارت قدر لدينا» تجري وراءه النخبة والصفوة لتجعل وطنه قطعة من اوربا وتجعل هذه الامة اوربية العقل والحياة تفكر كما تفكر الاوربيون وتلبس كما يلبسون وتفكر كما يفكرون وتصيب كما يصيبون وتخطئ كما يخطئون وتعيش كما يعيشون.

ولقد تبع ذلك من تصدر هذه النخبة الفكرية التي فرضت عليها الى الحد الذي اصبح فيه كل رجال الفكر في بلادنا لا يستطيعون ان يؤثروا في الامة وفي تحديد اولوياتها و ينسب مثلا تأثير صاحب تيار ثانوي في مركز من مراكز الغرب وقس على ذلك مدارس الفكر ومذاهبه وادوار الابداع عند كتاب عندهم «وجودية» تجعلهم فيجعلهم وجودية تبعية عندنا «وجودية» وإن كان عندهم «اعتزال» نعتزل عندنا «غرب» واذا كانت عندهم «بنيوية» فلا بد ان تكون لنا بنيوية وهكذا نصبح بالفعل راقصين على الايقاعات الفكرية الاوربية دونما اعتبار للبديهيات التي تقول ان لكل امة نمطا في التصور ولكل

حضارة عريقة وعتيدة وجعلته مرجعا في التطور والآراء الفكرية والأيديولوجية، لابد أن تطبع بطابع الواقع لدى معتنقيه لأنه تتفاعل فيه.

كما أن ظهور النقاء هذا المنطق العربي لنصب النهضة هدفا تسعى إليه المستضعفون في الأرض من شعوب الأمم التي اكتوت بهيمنة الاستعمار الحديث وذلك كي تتمكن شخصية هذه الشعوب وتترسخ في مختلف الميادين وشتى المجالات.

تيارات ثلاث

أمام هذه النهضة الغربية الاستعمارية ماذا حدث لحياتنا الفكرية، وكيف استقبل مفكرونا ومثقفونا هذا الوافد الغربي؟ لقد تشكلت الصورة على النحو التالي:

كانت لدينا مؤسسات فكرية تعليمية تقليدية عتيقة من مثل الأزهر والزيتونة والقرويين والطرق الصوفية إلخ وأمام هذه النهضة التغريبية حافظت هذه المؤسسات وانغلقت فانكفأت على ذاتها واستغنت عن موروثها الذي تعده السور والموروث الذي هو حصن من مخاطر التغريب.

وللأسف سيطرت على الذات التي انكفأت عليها هذه المؤسسات التقليدية لم تكن هي الذات الحقيقية والحية للحضارة العربية الإسلامية العقلانية المستنيرة التي تألقت في عصر ازدهار هذه الحضارة، وإنما كانت ذاتية فكرية للعصور الوسطى عصور التراجع والجمود التي توقف فيها الإبداع الذاتي والتفاعل الحضاري تحت تسلط المماليك وسلاطين العهد العثماني في

ظل هذا التسلط دليلا على عقلانية الفكر الإسلامي [illegible]
الفكر، وموقف الاحتجاب [illegible] في [illegible] هذه القرون [illegible]
فترات السيطرة [٦٤٨ – ١٣٤٢هـ = ١٢٥٠ – ١٩٢٤م] [illegible]
[illegible] الحواشي والمتون التي تصف [illegible] وغموض
في [illegible] اللفظية والمحسنات [illegible] التي كونت
[illegible] عصور [illegible] الفكر [illegible]

وقد [illegible] هذه المؤسسات التقليدية [illegible] في
[illegible] ورفض [illegible] الأخير [illegible]
العقلاني [illegible] ونحن نقرأ في أدبيات تلك
الفترة كيف [illegible] محمد عبده [١٢٦٦ – ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ –
١٩٠٥م] [illegible] طويلا [illegible] علوم [illegible]
والتاريخ والجغرافيا في مناهج الأزهر التعليمية، ولقد
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] واعتبروا [illegible] هذه [illegible]
[illegible]
[illegible] الأزهر في عصره [illegible] الرجل
[illegible] حسرة [illegible]

ونحن نقرأ في أدبيات تلك الفترة كيف [illegible] هو
الشيخ عليش [١٢١٧ – ١٢٩٩هـ = ١٨٠٢ – ١٨٨٢م] عندما
سمع أن الشيخ السنوسي [١٢٠٢ – ١٢٧٦هـ = ١٧٨٧ –
١٨٥٩م] يدعو إلى فتح باب الاجتهاد [illegible] عصره [illegible]
العتيقة، وأخذ يبحث عن الشيخ السنوسي [illegible]

ونعرف أن نفس السبب عينه هو عندما علق كلمة «المعتزلة» قد ذكرت في صحن الأزهر على الشيخ محمد عبده الذي كان لا يزال طالباً بالأزهر يتلقى على جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] معتزلة في حين حنبلي، ويدفع إلى صحن الأزهر فقط على مذهب ... ما سمع من شروح الأفغاني على أمهات كتب «علم الكلام» الإسلامي، عندما علم الشيخ عليش أن كلمة «المعتزلة» قد ذكرت بصحن الأزهر هم أن يهشم عظام محمد عبده بعكازه لعلمه.

كل هذا هو مستوى المؤسسات الفكرية التقليدية، سواء أكانت تعليمية أم صوفية تحول لديها التصوف من تصوف «عقلاني - فلسفي» أو «تهذيبي» شرعي إلى شعوذة وجبن واحتيال وبدع وخرافات.

لقد انكفأت هذه المؤسسات على أسوأ ما في التراث الفكرية، انكفأت على السلبي والجامد والمتخلف ورفضت في جمود شديد، ليس «ما جاء» من الغرب كوافد فقط، وإنما رفضت كذلك جوهر الموروث العربي الإسلامي كما تألق قبل عصر الركود والجمود.

ولقد كان تراث هذه المؤسسات الفكرية، الذي كون فكر أهلها في ذلك التاريخ، لا يبعث على السرور أو الاحترام، وكان مستحيلاً على هذا التراث أن ينافس «الوافد» الغربي الذي يمثل إبداع عصر النهضة والثورة الصناعية. فلم تكن تلك المؤسسات في ذلك التاريخ تعرف حقيقة موروث هذه الأمة، بل إن الذين بدءوا تحقيق النصوص القديمة والذين بدءوا يكتبون الدراسات

حول موروثنا الحضاري كانوا هم المستشرقين. وكان موقف مؤسسات التقليدية من جوهر تراث كنتر موقف اسعيهه الذين ورثوا كنوز عينة لكنهم لا يعرفون قيمتها ولا قدرها!! والذين يقرءون للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي [١٨٨٣ – ١٩٥١م] من كتبه عن [المخطوطات العربية] يصيبهم الأسى والألم وهو يحكي كيف كان الشيخ المسئول على مخطوطات مكتبة الأزهر جاهلا بقيمة هذه المخطوطات، بل وعدوا – بسبب هذا الجهل – منه. فقد امتن عليه كراتشكوفسكي. فحدثه عن في مخطوط إحدى رسائل أبي العلاء المعري [٣٦٣ – ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ – ١٠٥٧م] من زندقة والحاد. فما كان من هذا الأمين – أمين المكتبة – إلا أن جمع "سلة" من مخطوطات المعري وألقاه على كراتشكوفسكي أن يحدهـ لتطهر مكتبة الأزهر الشريف من بهذه المخطوطات من زندقة والحاد!

كان هذا هو موقف هذه المؤسسات التقليدية من الموروث الحقيقي للأمة لم تكن تعرف حقيقة تراث في مستويه الجوهرية ولأصله لأنها كانت تعيش على تراث ضحل ومعتم ومتخلف. عندما يوضع في كفة وسوضع في كفة أخرى تحديات غربية في الكفة الأخرى تصبح المعركة والمنافسة. وهكذا أصبحت عن دشكمة من هذا الوعد وبث "الموروث" والذي حدث، عند هذه المنافسة وهذه المعركة أن الصفوة والنخبة الحديثة والراغبة في الحداثة والتحديث قد أدارت ظهرها لهذا الموروث لأنها وبكل الإخلاص للوصول قد رأت أن السبيل إلى القوة والتحضر والتطور كامن في أن تصبح غربيا

كالغربيين في كل شيء. وتلك كانت بداية نشأة التيار الذي نسميه تيار التغريب في واقعنا الحضاري.

لقد نشأ هذا «التيار التغريبي» نشأة طبيعية بعد هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة، فتكونت الصفوة والنخبة الحديثة التي رأت أن ما يسمى بـ «الموروث» أو «الموروث المملوكي» بنسبته للإسلام لا تبعث على سرور وليست جديرة ولا مؤهلة لأن تقيل هذه الأمة من عثرتها، وتنهض بها كي تواجه الأوروبيين. فقالت هذه النخبة: إن السبيل لمواجهة أوروبا، والطريق لعودة الأمة لكي تتحرر من الاستعمار هو أن نستعير الحضارة الغربية. فكان أن دعت هذه النخبة إلى ما دعا إليه الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر]: دعا إلى أن نفكر كما يفكر الأوروبيون، ونحس كما يحسون، ونحسب كما يحسبون، بل ونخطئ كما يخطئون. إلى آخر مقولات تيار التغريب.

وبالطبع فقد كان هناك عذر للذين تغربوا في ذلك التغريب. فلقد كانت هناك قضية تلك المؤسسات التقليدية لا يصح لنا أن ننكرها أو نغفل عن آثارها، وهي أن الحفاظ على الذاتية حتى في صورتها المتخلفة كان أفضل من كارثة الذوبان والتلاشي في الحضارة الغربية ومن تسليم القلاع جميعها وفتح كل المعاقل أمام غزوة «التغريب»!

وهنا لابد أن نتذكر ونذكر ما حدث في الجزائر خلال معركتها ضد الفرنسة والمسخ القومي الذي أراد به المستعمرون الفرنسيون أن يحولوا الجزائر العربية المسلمة إلى امتداد فرنسي لاتيني

لفرنسا الأم عبر البحر الأبيض المتوسط وعلى الشاطئ الإفريقي. ففي معركة الجزائر هذه [illegible] عن هويتها وموروثها الحضاري ضد الفرنسة وحدها [illegible] [illegible] به [illegible] [illegible] للحفظ [illegible] وحدها تقوم وتحارب أحيانا حتى بالأسلحة العربية. فالجزائر قد سلحت وحررت حتى «ساحتها والأمية» من يتصور أن يصبح الجهل [illegible] أسلحة تدافع بها الشعب عن ذاته» ضد التغريب؟ [illegible] أن الذين تعلموا وتثقفوا قد أصبحوا فرنسيين [illegible] ويمشون في الوطن الأم فرنسا أو يسخرون في سحر الفرنسية وثقافتها [illegible] على جهلهم وأميتهم فهم الذين احتفظوا بهويتهم وبموروثهم الحضاري، [illegible] متميزة عن المسخ [illegible] الاستعمار. وقد استمر ذلك إلى أن جاءت [جماعة العلماء المسلمين في الجزائر] بقيادة شيخها عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ - ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فحررت [illegible] [illegible] وصنعت جيل الرجال [illegible] ومن أحشائهم [جبهة التحرير الوطني الجزائرية] التي [illegible] وحررت الجزائر، وأعادتها إلى أحضان العروبة والإسلام بعد احتلال قرن وثلث القرن.

[illegible] في ظل هذه [illegible] [illegible] على [illegible] رغم سلفيته، من حيث عجزه عن [illegible] [illegible] على منافسة الحضارة الغربية وفكرية [illegible] وهذه هي السلبية الكبرى للجمود [illegible] عجزه [illegible]

يقدموا البديل الصالح لنهضة الأمة أمام تحدي التغريب... ولكن هذا الجمود وهذا الانكفاء على التراث رغم تخلفه ورغم أنه لا يمثل جوهر العقلانية الإسلامية الحقيقية فإنه حفظ الموروث حتى يأتي بعد ذلك حين يطهر هذا الموروث ويتجاوز تخلفه وينفض عنه الغبار، ويأتي - بالاجتهاد والتجديد - فيبعث ويطور المشروع الحضاري الذي تواصل به الأمة مسيرتها الحضارية المستمرة.

إذن نستطيع أن نقول إن هذا الاحتكاك، الذي بدأ مع الغزوة الأوروبية الحديثة قد أفرز في واقعنا الفكري تيارات ثلاثة:

- تيار الجمود الذي أشرنا إليه.
- وتيار التغريب الذي ظن واعتقد أن الخلاص والسبيل الوحيد هو أن نتغرب ونصبح في الحضارة غربيين.
- ثم التيار الوسطي التجديدي الذي نستطيع أن نسميه تيار الجامعة الإسلامية أو تيار التجديد الديني الذي رفع لواءه جمال الدين الأفغاني والذي تكونت من حوله صفوة من المفكرين في مصر وفي المشرق وفي المغرب قادت الكثير من الحركات الوطنية، وقادت الكثير من حركات التجديد الفكرية والدينية في وطن العروبة وعالم الإسلام.

لقد رفض هذا التيار التجديدي الوقوف عند جمود المقلدين وبشر بضرورة تجاوز تركة العصور الوسطى والمملوكية والعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية.

وهذه العودة إلى المنابع هي التي تسمى بـ [السلفية] وهذا المصطلح قد أصبح - للأسف الشديد - واحدًا من المصطلحات

سمعة سيئة لدى كثير من المثقفين المستنيرين والعلمانيين في شرقنا العربي، فهم يعتقدون أن «السلفية» مرادف للرجعية والتخلف والمحافظة والجمود ... ونحن نعتقد أن هذا الفهم خاطئ والمغلوط يخفي عن حقيقة أن «السلفية» ليست تيارًا واحدا في الفكر الاسلامي، وعن حقيقة أن كل حركات التجديد والاصلاح في اطار وطن العروبة وعالم الاسلام قد كانت جميعها حركات ودعوات سلفية، ذلك أنه في الدين في الثوابت في الأصول في العقائد والشعائر في الشئون المتعلقة بالغيب والآخرة لابد من العودة الى المنابع، وهذه العودة الى المنابع إن اكتفت بالوقوف عند النصوص، ولم تنظر فيها بالعقل المستنير وبراهينه كانت سلفية نصوصية تورث أصحابها المحافظة والجمود، فاذا ما نظر هؤلاء السلفيون النصوصيون في المتغيرات الدنيوية بمنهج هذا السلفي النصوصي كانوا لابد نموذجا للجمود الباعث على النفور والرثاء.

أما اذا عنت «السلفية» العودة للمنابع والنظر فيها بالعقل المستنير والاقتصار فيها على الثوابت والأصول والعقائد، ثم المراوحة بينها وبين المستقبلية فيما يتعلق بالمتغيرات الدنيوية، كانت المنهج الأمثل للتجديد، لأنها بالعودة الى المنابع تمثل الثورة التجديدية ضد البدع والخرافات والرواسب التي ران على الثوابت والأصول، وهي بذلك تسهم في تحرير العقل من الأغلال التي تحقق عنه إهمال عصور الانحطاط، ثم إنها، فيما يتعلق بعمران الأرض وتطور المجتمع والمشروع

الحضاري المنشود لاستئناف الأمة. وكل شئون الدنيا تدخل في إطار المتغيرات الدنيوية وفق مصلحة مجموع الأمة التي هي في فلسفة الإسلام التشريعية «نص من النصوص» وتبعًا لذلك يرى البعض أنه إذا تعارضت «المصلحة» مع النص وجب تقديم «المصلحة» على «النص» لأن «المصلحة» نص الحديث النبوي الشريف.. حديث «لا ضرر ولا ضرار» تعبير من النصوص. فعندما نقدم «المصلحة» على نص فنحن نقدم «نصًا» على نص آخر ولسنا نخرج بذلك عن نطاق ثوابت الدين وأحكامه

هذا هو نهج مدرسة «التجديد الديني» الحديث فيما يتعلق بالثوابت. فيما يتعلق بالطابع الحضاري الذي يميز هذه الأمة لقد قالوا إنه يتميز عن الحضارة الغربية ولابد أن نحرص على هذا التميز وهذا التميز ليس انغلاقا ولا عداء حضاريا. أما فيما يتعلق بشئون الدنيا بالعلوم الطبيعية وتطبيقات هذه العلوم التطبيقية وبكل العلوم التي تؤسس حقائقها على قوانين وسنن بكل ما يدخل في «عوامل القوة» اللازمة لتقوية الذاتية الحضارية المتميزة فلابد أن ننفتح فيها على مختلف الحضارات نستفيد منها ونتمثل ونتبادل الأخذ والعطاء

ولقد كانت مدرسة «التجديد الديني» بهذا المنهج وهذه الدعوة، الممثل الحقيقي لموقف حضارتنا العربية الإسلامية التاريخي في هذا الموضوع. فالعرب والمسلمون قديمًا قد انفتحوا على الحضارة اليونانية والفارسية والهندية لكنهم

ثم ينحوسوا الى فرس او يونان اوهنود وانما هم تمثلوا من زاد سماتهم وخصوصياتهم تمرا وهم قد صنعوا ذلك من موقع صاحب الشخصية المستقلة، من موقع صاحب الحس الصحيح والصحي فكتب لهم قدرة تمثل و لاستيعاب دونما تبعية او مسخ او تشويه

لقد ترجموا فلسفة اليونان لكنهم لم يسوروها ولم يتبنوا مقولاتها لتكون التعبير عن روحهم الحضاري وتصوراتهم للكون والوجود وانما قرأوا هذه المقولات الفلسفية اليونانية قراءة اسلامية حتى لقد اصبحت «فلسفة اسلامية» اما الذين قلدوا من فلاسفتنا مقولات الفلسفة اليونانية فلقد ظلوا مجرد هامش في التراث الفكري الاسلامي بل لقد كان فلسفة هذه الامة الحقيقية ومظهر عبقريتها وابداعها في ميدان الفلسفة هو «علم الكلام الاسلامي» الذي جسد وسطية الحضارة الاسلامية عندما وازن بين «العقل» و«النقل» فتأسست فلسفته على قواعد الدين

ان هذه الامة لها طابع حضاري متميز والى هذا دعا تيار التجديد الديني دعا الى ان نحتفظ لهذه الامة بهذه الهوية الحضارية المتميزة ودعا الى أن ننفتح على علوم الحضارة الغربية ورائد هذا التيار جمال الدين الافغاني هو القائل «ان العلم امه وابوه الدليل فانما يكن العلم موسسا على الدليل فليس له وطن ولا جنس ولا حدود ولا خصوصيات اما في الانسانيات اما في الفلسفة والثقافة اما فيما تتمايز فيه الحضارات العريقة المتمايزة فلا بد من الاحتفاظ بالهوية

هنا كانت عبقرية هذا التيار الوسطي لدى رفضه «جمود الجامدين» والذي رفض أيضا «تغريب المتغربين». ومن يقرأ ما كتبه الإمام محمد عبده في الصفحات التي تحدث فيها عن «سيرته الذاتية» يجده يقول: «لقد نشأت كواحد من أبناء الطبقة المتوسطة في مصر، وتعلمت ما كان الناس يتعلمون، ورأيت جمهور الأمة وقد انقسمت إلى تيارين: طلاب فنون الدنيا وطلاب علوم الدين.. ثم نقدت الفريقين فلم يكن الأولون سالكين طريق التحضر الصحيح، ولم يكن الآخرون سالكين طريق الدين القويم.. ثم يقول: ولقد تحدد بينهما موقف وسط وهو الذي يجمع ما في الموقفين من حق صحيح».

ومن يقرأ كلمات الأفغاني ويتتبع سيرته في كل المواقع التي ناضل فيها، يجد أنه كان واعيا بموقفه الوسطي بين تياري الجمود والتغريب.. ولما كتبه عن المدارس الحديثة التي أنشأها محمد علي باشا [١١٨٤ – ١٢٩٥هـ = ١٧٧٠–١٨٤٩م] ومثلها التي أنشأتها الدولة العثمانية ومن قام في الشرق الإسلامي من تحديث على النمط الغربي تجد مصداق هذا الذي نقول. لقد كان الأفغاني مستقبح أحلام الذين ظنوا «الحداثة الغربية» صالحة للتعميم وإطلاق لتكون حداثة للعربية الإسلامية، فقال: «لقد سبق العثمانيون عدد من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحصلوا منهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب وكل ما يسمونه «تمدنا».. وهو في الحقيقة تمدن للبلاد

حتى نسأل هنا على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ... وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ نعم ربما وجد منهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية [القومية] وما شاكلها، وسموا أنفسهم زعماء الحرية ومنهم حرروا قلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أحدث ما يكون منها في الممالك الأجنبية وعدوا ذلك من مفاخرهم فبذلوا ثروة بلادهم إلى غير بلادهم وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط من شأنها. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم"

تلك كلمات جمال الدين الأفغاني شاهدة على أن مشكلة الموقف من الموروث، ومن الوافد قديمة قدم الهجمة التغريبية الاستعمارية التي دهمت بلادنا مع مطلع العصر الحديث وشاهدة كذلك على أن حركتنا الفكرية قد انقسمت إزاء هذه القضية إلى تيارات ثلاثة

- أهل الجمود الذين انكفئوا على الذات، التي لم تكن تمس الوجه الحقيقي والمشرق للموروث ورفضوا أي تفاعل أو انفتاح على الوافد الأوربي الحديث

- والمتغربون الذين تعاظم نفورهم من صورة الموروث كما تجسدت في فكرة المؤسسات التقليدية إلى نبذ هذا الموروث والسعي إلى تبني «النموذج الغربي في التحديث».

- وتيار التجديد الديني الذي لم تحد به رغبته عن موروثه تحديث الذات ولم تقف به حدود بين الموروث والوافد وبما ينطلق من الالتزام بالأصول الجوهرية واستيعابه لموروث الأمة ويسعى إلى دعم استقلالية التحضر الذاتي في الحضارة العربية من عوامل القوة والتقدم التي تدعمها الأوربيون.



الجديد فى حقبة السبعينيات

لكننا نسأل السؤال نفسه الذي سأله ويسأله الكثيرون

- لماذا ساد وعلا الصوت الذي يتحدث عن الوطن والموروث بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م؟
- ولماذا استمرت ظاهرة العودة إلى الموروث والتحصن به في حقبة السبعينيات؟
- ولماذا اندفع الشعب في مصر بتلقائية وعفوية ينشد نشيد «بلادي، بلادي لك حبي وفؤادي» في جنازة البطل الشهيد الفريق عبد المنعم رياض؟

* * *

ولماذا اندفع الشبيبة ولم يتجهوا إلى حيث الموسيقى العربية بعد هزيمة ١٩٦٧م، وخلال حقبة السبعينيات؟

- ومتى انخرطت أفواج الشبيبة في تنظيمات «الموروث [الإسلام]» تتحصن به كما لم تتحصن بشيء من قبل، حتى بأشكاله ورموزه [اللحية، والجلباب، والسواك]

■ من ومتى احس الناس بالحاجة الى تقدم ... عن
الثقافة القومية

متى حدث ذلك؟ ولماذا هذا الانحسار بعد هذه التخصص
بالموروث ... والجدال الذي يعلو صوته حول قضية ... وافد
و موروث؟

لقد حدث ذلك في مواجهة هزيمة سنة ١٩٦٧م حتى اقترب
ضمير ما قرب تحرير المشاريع التحديثية المعتمدة
الوافدة من مصداقيتها وجدارتها بالنهاض الامة من كبوتها
الحضارية ومن ثم فلقد انعطفت جماهير الامة الى الموروث
تتحصن به وتدعو الى سلوك سبيله لمواجهة التحديات
المفروضة على الامة وثقة من فعاليته اليوم لان اسلافها قد
انتصروا على تحديات الامس بهذه الفعاليات

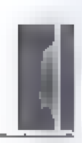
وحدث ذلك في مواجهة الهجمة التغريبية التي حدثت بها
حقبة السبعينات تلك الهجمة التي تحسب في سيوع التحلل
الاقتصادي الذي اسموه انفتاحا وسيوع ثقافة التسريح
الانفتاحية وسيادة قيم شارعي «الشواربي» و«الهرم» في
اجهزة الاعلام وسيوع الانماط الاستهلاكية التي تستنفر غرائز
الشهوة والنشوة والشهوة في الانسان!

لقد زحفت هذه القيم والظواهر التغريبية على واقعنا في
حقبة السبعينات حتى كادت تطمس ضياء ذلك السهم الذي
لمع في افقنا في السادس من اكتوبر سنة ١٩٧٣م وذلك لم يكن
غريبا ان يحتج ضمير الامة وينتفض جسدها بحثا عن

الحماية في ترسانته الحضارية التاريخية ومتحصنا بموروثه ومتترسا بالقلعة التي تترس بها أسلافه وهم يواجهون أمثال هذه التحديات التي مرت بها هذه الأمة عبر تاريخها الطويل

ذلك هو تفسير الشيوع لهذه الظاهرة في السبعينيات

لقد كان شيوعا لظاهرة لم توجد في الستينيات



قانون الاحتكاك الحضارى

إن سر الحدث للنهضة التي حدثت لأمتنا عندما احتكت هذا الاحتكاك العنيف بالحضارة الغربية هو أنه قد يكون في عنف ... القانون الذي يحكم ظاهرة التماس الحضاري والتفاعل بين الحضارات سواء أكان هذا التماس سلبيًا أم إيجابيًا

فنحن إذا رجعنا تاريخ الحضارة الغربية عندما كانت في سبيلها إلى النهضة نرى أنها قد احتكت بالحضارة العربية الإسلامية ونحن نعرف دور الأندلس والترجمة وسقوط ... في الأندلس إلى آخر القصة المعروفة التي يحفظها الجميع

ماذا كان موقف أوربا من هذه الحضارة المتفوقة؟ ومن أوائل الذين ... من موقفهم من حضارتنا عندما احتكت بها سلمًا وعنفًا في الأندلس وعنفًا في الحروب الصليبية وهي في سبيلها إلى النهوض

لقد انقسمت الحياة الفكرية الأوربية ... إزاء التراث العربي الإسلامي إلى تيارات ثلاثة:

■ ومن هذه التيارات موقف كان تيار «الكنيسة الكاثوليكية» الذي مثل أهل المحافظة والرجعية والتخلف والجمود.. لقد رفضوا أي انفتاح على الحضارة العربية الإسلامية. رفضوا الدين الإسلامي وعقلانيته والقيم والأخلاق والفكر والثقافة جميعا.. لقد تصوروا ما تحمله لهم الدين الإسلامي من «توحيد» بلغ أرقى صوره وأنقاها حتى ترفض أي «حلول» أو تجسيد أو تعددية في ذات المعبود سبحانه.. الخ ولذلك رفضوه، ورفضوا الفلسفة الإسلامية، بما فيها من عقلانية.. ورفضوا فكرية الحضارة الإسلامية بكل ما فيها دينا وعلوما وحضارة فلقد كانت علوم هذه الحضارة حاملة في ثناياها الروح الإيمانية للإسلام.

■ وكان هناك تيار يسميه البعض بـ «الرشديين» اللاتين الذين ساروا مع ابن رشد، وحولوا التفسير لفكره.. وكان في هذا التيار قطاع متحمس لتبني الحضارة العربية الإسلامية يتسلح بها، واتخذها عدة في حربه ضد الكنيسة وتيار الجمود.. ولقد بلغ هذا القطاع في حماسه للوافد العربي الإسلامي إلى الحد الذي جعله يتمنى أن تنطبع به أوربا انطباعا كاملا وتاما.. فتمنوا أن يسود الإسلام وحضارته أوربا. وكتب «أناتول فرانس» [١٨٤٤ - ١٩٢٤م] معبرا عن نزوع هذا التيار يقول: «يا ليت الإسلام كان قد بسط فكره على أوربا من الأندلس حتى تركيا.. ويا ليت مآذن المساجد قد ارتفعت بدلا من الكنائس، ويا ليتنا سمعنا ترتيل القرآن بدلا من الإنجيل.. إذن لأعفيت أوربا من عصورها المظلمة والقرون المتخلفة التي عاشتها.»

على هذا النحو فكر وعبر فريق من مفكري اوربا كان يرى لموقف الامثل هو تبنى هذا الوافد العربي الاسلامي ليكون ليدين الذي ينهض باوربا ويخرجها من عصورها المظلمة

■ أما التيار الاساسي الذي صنع عصر النهضة الاوربية وبنى دعائمه، فلقد وقف ازاء الحضارة العربية الاسلامية موقفا متميزا عن موقف «الرفض الكامل» الذي وقفته الكنيسة وأنصارها وعن موقف «التبني الكامل» الذي وقفه فريق من «الرشديين اللاتين»

لقد سعى هذا التيار الى حضارتنا فوعاها ثم استلهم وتمثل منها «المنهج التجريبي» و«العلوم الطبيعية» اما فلسفة العقلانية الاسلامية فلقد مر هذا التيار عليها عن نقص فرفض ما في عقلانيتنا من «نقل» و«وحي اسلامي» واخذ فقط الانحياز الى براهين العقل فكانه قد اخذ عنا عقلانيته اليونانية وترك ما تميزت به عقلانية الاسلام

لقد كان المنهج عند اليونان هو القياس فاصبح في حضارتنا هو الاستقراء والتجريب وهذا هو الذي تمثله الاوربيون من حضارتنا وتمثلوا معه علوم هذه الحضارة من طب وحساب وجبر وتجريب الخ الخ لكنهم تحفظوا ازاء القيم والاخلاقيات والروح الحضارية للحضارة العربية الاسلامية اخذوا علوم العرب والمسلمين التي نسميها «العلوم الطبيعية» وتصنيفات هذه العلوم ثم طوروها في عصر النهضة ولكنهم فيما يتعلق بالانسانيات تحفظوا لقد رفضوا «التوحيد» وهو جوهر فكرية [ايديولوجية] هذه الامة

ومعيار نظرتها وتصورنا لهذا الكون ورفضوا قيم حضارتنا ورفضوا «الوسطية الإسلامية» التي هي الموقف المعتدل والعبور الذي تقف به حضارتنا بين ما هو «دين» وما هو «دنيا» وبين الدنيا والآخرة وبين الجسد والروح وبين الحكمة والشريعة الخ وهذه الوسطية هي المزاج الحضاري والروح الحضارية التي تميزت بها حضارتنا العربية الإسلامية

لقد أخذوا الجانب العلمي المؤسس على الحقائق العلمية وتطوره أما فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية وبالقيم وبالأخلاقيات والطابع الحضاري والذي يشبه «البصمة» و«المزاج الحضاري» و«الروح الحضارية» فلقد رفضوها رفضها هذا التيار الذي أسس وبنى وصنع وقامت على أكتافه فكرية عصر النهضة في أوربا

هذه هي التيارات الأوربية الثلاث التي واجهت مواقف العربي الإسلامي إبان سعي أوربا إلى النهضة والتي تقابل تياراتنا الثلاث في موقفها من فكرية «التغريب» تطورت في الوضع الفكري الأوربي كما تطورت في واقعنا الفكري جراء ظاهرة الاحتكاك الحضاري بين الحضارتين، لتشهد على عموم هذا القانون

«فأهل الجمود» يرفضون أي انفتاح على أي حضارة من الحضارات ويستكفون على الذات بصرف النظر عن صلاح وصلاحية هذه الذات

وقوم [illegible] هم المتغربون [illegible] دعاة الانسلاخ [illegible] هؤلاء
يتحدثون في الحديث «التحضر» في كل شيء ويصبح مثله في كل
المجالات والميادين.

ولنتأمل [illegible] في حياتنا [illegible] محمد البهي [illegible]
يصور [illegible] مشروع حضاري متميز [illegible] على
قاعدتين، ويصور [illegible] بالمشروع الحضاري [illegible]
وبالعلوم والنظم التي تمثل «محيط» القوة في الحضارة الغربية

لقد [illegible] الإسلام [illegible] وهو [illegible]
يعلم الدين [illegible] ليس على [illegible]
تنتهي للأوربيين [illegible] من الاختلاف [illegible]
كل [illegible] موقف المتغير بين العلوم
التي لا وطن لها ولا جنس ولا حدود تحد صلاحها وصلاحيتها
وبين الإنسانيات والاجتماعيات والفلسفات والفكر الذي يحدد
للإنسان تصوراته للكون [illegible] المواقع الحضارية

وهذا التمايز الحضاري [illegible] كما [illegible] هو غير الانغلاق
والعداء الحضاري

وعلى سبيل [illegible] أبي [illegible]
الذي تعيش عليه [illegible] الحضارية [illegible]
يمكن [illegible] حضارة متميزة [illegible] حضارة متميزة
وإن العرب حضارة متميزة [illegible] العرب [illegible]
حضارة متميزة [illegible] الحضاري [illegible]
«التبعية» [illegible] من [illegible] الحضاري
و«الخصومة الحضارية»

الصيني ... وتسي تونغ [١٨٩٣ - ١٩٧٦م] [illegible]
قد طوع الماركسية وهي [illegible] للموقف الصيني
[illegible] خصوصية
[illegible] لاوربي [illegible] ومراحله
والردة والانحراف [illegible] لكنه يقول هنا [illegible] الصين [illegible]
العسكري بوتقة حضارية متميزة وفي هذه البوتقة كان على
الوافد [illegible] أن يطوع للصيرورة [illegible] بشكل جديد.

وهذا النص الصيني يذكرنا بما سبق أن أسلاف العرب المسلمين عندما ترجموا الفلسفة اليونانية فإنهم قرأوها قراءة إسلامية، لقد [illegible] من موقف مستقل وموضع [illegible] شروحهم الحضاري المتميز ومراحلهم الحضارية الخاص والذين يفقهون، ولا أقول يقرأون، شروح ابن رشد على أعمال أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ق.م] وهو الشارح الأكبر لأرسطو- يرون في إضافات ابن رشد وإبداعه ما يمثل ابن رشد المسلم، والمتكلم، والقاضي والفقيه. فما كانت الإضافة ممثلة للروح الحضاري حتى في الشروح الأرسطية على أعمال [illegible] في صورته الحقيقية [illegible] كمتكلم وفيلسوف وفقيه.

هذا هو القانون [illegible] حكم [illegible] «التغريب»، عندما بدأت العروة الأوروبية الحديثة وهو ذات القانون الذي حكم [illegible] العرب [illegible] نهضته وعلى قبل ذلك حكم [illegible] العرب المسلمين [illegible] العصر الأموي وفي

العصر العباسي، بالحضارات التي احتوتها وترجموا عنها حضارات اليونان والفرس والهنود

ونحن عندما نتامل في تجربة مصر تحت قيادة محمد علي باشا، نجد ما يفيدنا في هذا الموضوع.. إن البعض منا عندما يفتح كتاب [البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس وسعيد] وهو الكتاب الذي وضعه الامير عمر طوسون [١٢٨٩ - ١٣٦٣هـ = ١٨٧٢ - ١٩٤٤م] ان هذا البعض يردد كلاما شائعا- ولكنه مخطئ - يقول: إن من سلبيات محمد على انه قد بعث المبعوثين الذين درسوا العلوم والفنون العملية من طب وزراعة وهندسة وعسكرية وقناطر وجسور واستحكامات وطباعة ونسيج وغير ذلك الخ.. ولم يرسل مبعوثا واحدا ليدرس اساسيات الحضارة الاوربية وفلسفاتها. وحتى الذين برعوا في ابداع الفكر الانساني من هؤلاء المبعوثين فإن براعتهم هذه لم تكن وليدة ما درسوه في اوربا بهذا الميدان.. فعلي مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] الذي برع في التاريخ للمجتمع من خلال [الخطط] كانت دراسته في اوربا عن الاستحكامات العسكرية.. والطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م] قد تخصص هناك في ترجمة علوم الصنعة والفنون العملية.. فكانت ريادته لهذا الميدان عودة وعادة لريادة طلائع المترجمين العرب في العصر الاموي عندما بداوا بترجمة علوم الصنعة منذ منتصف القرن الهجري الاول تحت قيادة خالد بن يزيد [٩٠هـ - ٧٠٨م]

ونحن لا نرى في صنيع محمد علي ما يشهد بسلبيته كما يرى
الآخرون، فهو لم يقتصر في النقل إلى أوروبا على علوم الصناعة
والصنائع التطبيقية والعلوم الطبيعية، ولذلك فقد تحقق وتحقيقات
إنسانية والأدبية كما يعتقد البعض خطأ ويحكم ظلماً وإنما
صنع ذلك لأنه كان واعياً بالضروري الذي هو في حاجة إليه
وعرف بثاقبة نظره الذي يحتاجه وما شابه الموروث الذي لا بد
من الاحتفاظ به لقد تعلم الصناعة من أوروبا وقدم بنظرته إلى
طبقة علوم أوروبا بعقليته كما شجعت دعائم الموروث في وضع
مشروع قومي لإحياء التراث في عصرنا الحديث

والطهطاوي الذي يجمع الجميع على أنه صاحب المذهب
الانتقائي، ويعني أنه هو الذي وقف سراجاً منيراً ينير الطريق
في عصره حديثاً طيباً عن الأوروبيين باعتبارهم هم التمدن
والتقدم والصناعات التي يجب علينا أن نأخذ عنهم هذه العلوم
والصناعات بلا قيد ولا حدود، ولكنه يتمسك بأن يحدد الـ
مراده وهدفه من هذا الانفتاح، فالذي يعنيه هو علوم التمدن
المدني والعلوم الحكمية العملية، وهو يكرر ذلك ويلح عليه
فلا يدعو إلى الفلسفة الغربية وتصور الأوروبيين للكون
وفلسفتهم في الشرع بحفاظه على ذلك، وحذف ما ... لهم في
الفلسفة حشوات ضلالية تخالف كل الكتب السماوية، وهذا
يصف بعد البعض يعيب ذلك على الطهطاوي لأنه يتمنى لو
يتبنى الرجل كل ما في أوروبا حتى فلسفته ولاهوته، ونرى هذا
البعض في موقف الطهطاوي هذا سلبية وارتجاعية وعجزاً عن
تبني الحضارة الغربية ككل، ونحن نقول إن هذه هي عبقرية عند

الطهطاوي، وهذا هو الموقف الأصيل الذي يحسب له الأصالة والمعاصرة على النحو النافع والمطلوب. لقد عرف الطهطاوي ما الذي نحتاجه من أوروبا كي نقوي شخصيتنا الحضارية المتميزة فبحث عن «الوافد» الذي يقوي به «موروثنا» المتميز، وليس عن «الوافد» الذي يطمس هذه الذاتية الحضارية المتميزة.

ونموذج محمد علي باشا، ونموذج رفاعة الطهطاوي من النماذج الحية التي ترسم معن هذا القانون الذي أبصره هؤلاء العباقرة المصلحون والمجددون، وأبصروا حكمته الظاهرة الحاكمة بين الحضارات ذات العراقة والغنى والاستمرار: فماذا نحتاج؟ وما العلوم التي لا وطن لها، والتي لا خطر على ذاتيتنا المتميزة من وفودها؟ والتي لا بد لنا وأن نسعى إليها سعيًا جادًا وحثيثًا؟ وما الذاتية الحضارية التي لا بد من تجديدها والنهوض بها وتطويرها، مع المحافظة على الأصول والسمات والقسمات التي تضمن بقاء تميزها المتسق مع الشخصية القومية للأمة؟ لأنها بالنسبة للأمة كالبصمة بالنسبة للفرد، فكما أن لكل إنسان «بصمة» وهو يصافح الكل دون أن يفقد تميزه ببصمته هذه عن الآخرين، كذلك هناك الذاتية الحضارية المتميزة والتي يجب أن نبحث عنها في «الموروث». ونحن عندما نسعى لامتلاك العلوم وحقائقها والاستفادة من تطبيقات هذه العلوم والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى فإنما نسعى لامتلاك «مصادر القوة» التي نقوي بها ذاتيتنا الحضارية المتميزة دون أن نخلطها بتلك المصادر التي تمسخ شخصيتنا أو تشوه ذاتيتنا أو تنسخها من الأساس.

إن الإنسان الصحيح [المستقل] هو الذي صحته تتمثل
فيما يتناول من الغذاء فينتفع به وهو الغذاء قد يودي بحياة المريض
والإنسان ينمو ويتطور فتتغير فيه أشياء ولكن هناك ثوابت
تجعله هو هو رغم النمو والتطور الذي يعتريه. وكذلك شأن
الحضارات فيها الثوابت والأصول والقسمات التي تمثل هويتها
وفيها المتغيرات التي تفسح الهوامش للتفاعل والأخذ والعطاء
مع الحضارات الأخرى. وعلينا أن نبصر ذلك جيدًا وأن نميز
بينه جيدًا حتى نتجنب مخاطر «التبعية والذوبان» ومخاطر
«الجمود والانغلاق».

أى موروث؟.. وأى وافد؟..

إذن فالقضية ليست قضية «موروث» و«وافد» على الإطلاق والتعميم، وإنما هي قضية ما الصالح والأصلح من «الموروث» ومن «الوافد».

بل إننا سنجد في كل «موروث» عناصر، وفي «وافد»... ذلك أن بعض «الوافد» لصلاحه وملاءمته للروح الحضارية يتحول بعد تمثله إلى «موروث»... فالوافد الجديد يمكن أن يكون ضعيفًا وصحيحًا، ويمكن أن يكون ضارًا، إذن فموقفنا ليس هو أن نقف مع «الموروث» بشكل مطلق، أو مع «الوافد» بشكل مطلق... وإنما لابد لنا أن نبحث عن «الهوية الحضارية» فنتميز الثوابت، وبين الثوابت وبين المتغيرات التي في هامشها مساحة ومكان للوافد المفيد لمدد القوة والصحة للهوية وللثوابت الحضارية الموروثة.

وعلى سبيل المثال، فإننا عندما نجد في الموروث العربي الإسلامي «قيم التواكل والزهد» الذي قد يصل إلى درجة إدارة الظهر للدنيا وللعمران، فإننا نعرف أن هذا التواكل والزهد

الموروث هو في الأصل «وافد» فارسي دخل إلى الحضارة
العربية الإسلامية ووفد عليها من الموروث الفارسي القديم ولكن
وبسبب صار لقد أصبح «موروثاً» ومع ذلك فإن هذه عادات
كل وافد وصار بتقادم أصبح جزءاً من نسيج هذه الحضارة، فهو
موروث لكنه موروث صار، كما كان وافداً صار.

و«قيم عصر الحريم» فيما يتعلق بوضع المرأة والنظرة
إليها، لقد بدأت «وافداً» تركياً مملوكياً دخيلاً على حضارتنا
العربية الإسلامية. ومن يقرأ فتاوى الإمام محمد عبده عن رأي
الإسلام في تعدد الزوجات يجد حديثه عن هذه الحقيقة. وبعد
تحول هذه القيم إلى «موروث» إلى الحد الذي جعل الكثيرين
يتصورون أن قيم عصر الحريم هذه هي المعايير الإسلامية التي
نظر بها الإسلام إلى المرأة المسلمة! وينسى هؤلاء أن صورة
المرأة المسلمة، في صدر الإسلام كانت المرأة المقاتلة
والمناضلة والعاملة والعالمة والتي تدافع عن حقوقها حتى
المصادرة، والتي تذهب إلى الرسول ﷺ وتقول له إن
الرجال قد استأثروا بك دوننا، وأنت مبعوث للجميع فاجعل لنا
يوماً تحدثنا فيه وتعلمنا أمور الدين. وينسى هؤلاء أن تلك
الصورة الإسلامية لنساء المسلمات اللاتي حملن السلاح ودافعن
عن الرسول في غزوة أحد عندما فر كثير من الرجال... إلخ. إلخ
فصورة المرأة المسلمة المناضلة قد انزوت وكادت تتلاشى في
صفحات موروثنا، وأصبحت قيم عصر الحريم وصورة المرأة

التي خلقت لتكون متعة الرجال وموضع شهواتهم ومتعة تتربى في البيوت — هي موروث لدى أصقاع غبية العصر قديمة أدت محاولين تحديده فصبح جزءًا من الهوية الحضارية للأمة.

و... الطبقية المستعلية ... فهي الأخرى ... وفد ... فارسي وبيزنطي، غريب عن الموروث العربي الأصيل الذي يعتز بالعدل والمساواة وقيم الاشتراك العمومي بين أفراد القبيلة ثم الأمة في أمور المعاش.

والذين يتأملون مغزى موقف خليفة الرسول عمر بن الخطاب من أبهة الملك وامتيازات الوالي التي كان عليها معاوية بن أبي سفيان عندما كان واليًا لعمر على الشام، الذين يتأملون موقف عمر هذا يدركون كيف كان معاوية ... بالأبهة والحجابة والطبقية ... نمطًا سيئًا وفدًا وغريبًا عن الفكرية الإسلامية المنبثقة في بيئة الجزيرة العربية. ولقد عبر معاوية ... هذه الوافد في حياته وأسلوب حكمه لولايته بضرورة ... لتعزيز هيبة الوالي في قلوب الناس ... الأبهة والطبقية من موارث الساسانيين التي غلبت موروث ولاية الشام. وبعد كل حوار عمر على تبرير معاوية هذا

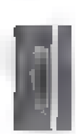
– لا آمرك، ولا أنهاك!

فلقد كان الثراء والترف مختلفًا عن واقع شبه الجزيرة العربية البسيط والساذج وقد غريب عن البساطة والجماعية التي سادت شبه الجزيرة في ذلك التاريخ

وهذا الموقف الغربي والتغريبي قد أصبح «موروثاً» [illegible] ولا
نجد أصحاب [illegible] [illegible] الذين يجحدون الحقيقة المسلمة
يضفون عليه قدسية الموروث [illegible] وقداسة [illegible] [illegible] عن
مشروعية [illegible] [illegible]، وضرورته ليتخذ بعض [illegible]
بعض آخر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الإسلام الحنيف [illegible] العدل والمساواة والاجتماعية والتكافل
الاجتماعي يضفون قداسة هذا الدين الحنيف على هذا [illegible]
الطبقي الاستعلائي الذي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
ومجتمعات طبقية لم تعرف [illegible] الشريعة التي [illegible] فيها الإسلام

[illegible] هو جانب لا ينقضي [illegible] [illegible] [illegible] والا
رفض الموقف [illegible] [illegible] [illegible] لابد أن [illegible] عن مكان
الموروث من هوية الأمة الحضارية، ومن الثوابت والأصول التي
تمثل السمات التي تتميز بها وتمتاز عن الأمم الأخرى. ودور هذا
الموروث في المحافظة على التواصل الحضاري في مسيرة الأمة
التاريخية ومكانته من ترسانة الأسلحة اللازمة [illegible] في
صراعها ضد تحديات العصر الذي نعيش فيه.

وإن [illegible] كذلك، عن ماهية [illegible] وهل هو عامل قوة
ضروري [illegible] وعن [illegible] [illegible] [illegible] الحضارية التي
تفرضها علينا؟ فإن كانت نهضتنا تقتضيه ومشروعنا الحضاري
يستدعيه، فلابد أن نسعى إليه سعيا جادا وحثيثا [illegible] فهو أولى [illegible]
ونحن أولى به من [illegible] [illegible] قد أصبح [illegible] [illegible] [illegible]
الانطلاق



ما هى الهُويـة؟

وإن كان المعيار في الموقف من الموروث ومن الوافد هو هوية هذه الأمة، والثوابت الحضارية التي تميزتها وتميز النموذج الحضاري المكون لمزاج حضارتها، فلابد أن نحدد ما هي هذه «الهوية»؟

هل الهوية هي كل التراث؟

نحن نحسب بادئ ذي بدء أن تراث الأمة هو كل موروثها، هو كل ما ورثناه، سواء منه ما كان من علوم الشرع [illegible] ومن «العلوم العقلية» [illegible] في «العلوم التجريبية»، كل هذا هو تراث الأمة. وهذا التراث فيه الثابت والمتغير [illegible] المختلفة [illegible] وفيه [illegible] لأنه ثمرة لاجتهادات بشرية فكرية وممارسات فكرية متعددة بل ومتناقضة [illegible] في ذلك الواقع القديم. وهذا الواقع الذي تبلور فيه هذا التراث متطور أبداً ومتغير حتى تحكم [illegible] التطور الذي هو سنة من سنن الله [illegible] في الكون. وهذا التطور لابد أن يستدعي تطور

فضلاً من هذه الذات، وهي التي [illegible] ولذلك فلمست عتاقة الكتب واصفرار أوراقها، وغرابة حروف مخطوطاتها، ولا [illegible] مقولاتها، ليست هذه بالمؤهل ولا بالحجة التي تضفي على الموروث القداسة والمصداقية. ومن ثم فنحن اليوم لسنا ملزمين [illegible] ولا بمناهجهم، ناهيك عن مقولاتهم [illegible] بذلك الإلزام عبث والذين يفكرون على هذا النحو [illegible]

لذلك لا نقصد [illegible] على كل الموروث [illegible] حتى ولو تحوّل [illegible] فليس كل موروث هو الهوية [illegible] التي تميز الأمة حضارياً.

ونحن [illegible] عن تعريف الهوية [illegible] ليس غريباً على موروث [illegible] فهو واحد من المصطلحات التي [illegible] [٧٤٠ - ٨١٦هـ / ١٣٤٠ - ١٤١٣م] يعرف الهوية في كتابه [التعريفات] وهو قاموس للمصطلحات [illegible] الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق [illegible] الصامدة عن الظواهر التي تشبهها.

أما معجم اللغة العربية فهو يعرف الهوية [illegible] فيقول إنها: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية وليست [illegible] تميزه عن غيره

هل هو تعريف الهوية العربية وحدتنا، ولذلك فسنبدأ بعد

بعد الحديث عن الشخصية القومية والشخصية الحضارية

ماذا تعني الهوية بالنسبة للحضارة

كيف [illegible]

من الصفات الجوهرية التي تميز عن غيرها من الشخصيات القومية والحضارية أنها الصفة الممثلة للقدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة التي تميز شخصا ما عن غيره او قومية عن غيرها او حضارة عن غيرها من الحضارات فهي في البؤرة وهي الجوهر

وإن كان ذلك لا يعني أن [illegible] الثوابت وحدها المعتبرات فهي يعني أن فيها ما هو ثابت وفيها ما هو متغيرات تتغير في التصور وارد على نحو أكيد

وهذا الأمر أن ينطبق على ذلك بعض الأمثلة

فالعروبة بالنسبة لهذه الأمة هوية لأنها على مر العصور ومنذ أن امتزجت هذه الجماعة البشرية بالعروبة في هذه الأمة الجديدة، صارت مصر والشام ولاؤهم للعروبة بالمعنى الحضاري وليس بالمعنى العرقي والعنصري ومن يقرأ ما كتبه العلماء العرب الذين انحدروا من أصلاب وسلالات غير عربية يعرف كيف كان ولاؤهم للعروبة وانتماؤهم لها كاملا وخالصا ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال ابن جني [٣٩٢هـ - ١٠٠٢م] الفارسي الأصل والذي كتب كتابه

[الخصائص] فجاء أعظم ما كتب في فلسفة العربية يكشف عن
حتى عندما كشف لنا عن الكثير من علماء العربية ذوي
الأصول النسبية غير العربية والمنحدرين منهم من أصل فارسي
على وجه الخصوص، فسألتهم عن مكانة العربية بالنسبة
للفارسية، فوجدت جماعتهم على رقي العربية وارتفاعها حتى لا
ينكرون مجرى المقارنة والقياس»[٤]

فهؤلاء جميعًا، قد تعربوا وأصبحوا يفكرون ويبدعون
ويكتبون بالعربية وخلص ولاؤهم لها، وهم بالعروبة رغم
أنهم من أصلاب عرقية غير عربية.

والمواريث التي سبقت الفتح العربي والإسلامي، هي كذلك قد
تعربت كما تعرب البشر، ودخلت أثناء عصر التدوين في
نسيج الحضارة الجديدة تلك التي تبلورت كثمرة لإسهام جميع
جميع أمم الشرق وكل مواريث هذه الأمم على امتداد عمق
حضاراتها الضاربة في أعماق التاريخ، حتى إنني لو قلت إن
نصيب غير العرب الأقحاح في هذه الحضارة العربية الإسلامية
أكبر من نصيب عرب شبه الجزيرة العربية، لما كنت مبالغًا لأن
أن الفتح العربي لم يمارس مع هذه المواريث الفكرية والحضارية
سياسة المسخ أو النسخ أو التشويه، وإنما حماها وعربها
وصبغها بصبغة الإسلام وأدخلها في نسيج الحضارة الجديدة.

وعندما جاء عمرو بن العاص إلى مصر فاتحًا لها ومحررًا
إياها من القهر البيزنطي، وجد أن الذين يمثلون هوية مصر
القومية وأصالتها، وهم الأقباط «اليعاقبة» — وحدهم

المضطهدين قد فروا إلى الصحارى والأديرة في عمق مصر [illegible]
[illegible] مذهب [illegible]
[illegible] الفكري [illegible]
واستبدوا بمؤسسات الفكر في مصر وسيطروا على الكنائس [illegible]
[illegible] عمرو بن العاص [illegible] «المقوقس» [illegible]
[illegible] [illegible]
من كنائس مصر ومؤسساتها اللاهوتية والفكرية وأعاد كل ذلك
إلى [illegible] مصر [illegible] الأقباط، فعادت فكرية مصر القبطية
اليعقوبية [illegible] من جديد [illegible] هذه الفكرية [illegible]
[illegible] أسلمت [illegible]
[illegible] وأسهم وأبدع مع من أسلم في هذا
البناء الحضاري الجديد [illegible] الإسلام
العقيدة [illegible] وأسلموا [illegible]
عقائد التي [illegible] محمد [illegible]
العربية الإسلامية [illegible] عصر [illegible]
[illegible] طبعوا بهذه الهوية
الحضارية [illegible] على [illegible]

وهذه العروبة [illegible]
وصمدت لكل التحديات، فالمماليك والعثمانيون، قد حكمونا
[illegible] على القرون التي حكم [illegible] العرب الذين سبقوهم
وفي ظل حكمهم [illegible] دعوى التفرقة بين العروبة وبين
«الإسلام» عندما زعمت السلطة أن العروبة تتناقض مع

والإسلام. [illegible] هذا الزعم على ضوء [illegible] وبعده ستتضح على ضوء الدعوة العنصرية في حد ذاتها [illegible] العروبة والعربية، حتى لقد سعى الأتراك إلى تتريك الأمة العربية.

ثم رأينا في الجزائر الجهود الاستعمارية المحمومة لفرنسة الشعب الجزائري عندما حاولت فرنسا تحويل الجزائر إلى امتداد للأراضي الفرنسية ليس عبر البحر المتوسط.

ورأينا الجهود التغريبية التي بذلت في قوة واستمرارية وانتظام وشمول [illegible] حرب على العربية وتراثها [illegible] قطع الروابط التي تجمع [illegible] العرب [illegible] وأديب فمرة يريدون كتابتها بالحروف اللاتينية ومرة يريدون استبدال العامية بها وفي كل الأحوال هم يشككون في أصالة تراثها ويعزلون الإسلام عن عرش لغته [illegible] وقد تم [illegible] على هذه الجبهات كل أدوات [illegible] العربية [illegible] وتخلصهم منها حتى وجدت خطباء ومتحدثين في أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية [illegible] في وسائل الإعلام المقروءة [illegible] الأخطاء الفاحشة باللغة القومية ثم لقد وصلت الأخطاء الفاحشة إلى [illegible] خطبة الجمعة [illegible] وعمد الشعر العربي [illegible] القرآن الكريم والحديث الشريف على ألسنة كثير من الخطباء.

ومع كل [illegible] فلقد وجدت هوية العروبة [illegible] كل تلك التحديات، لقد كشف في الجزائر كمون [illegible] والجماهير وحقيقة مطلقة حتى [illegible] الجزائر مرة أخرى إلى أحضان العروبة والإسلام.

ولكن هل هذه العودة التي رأيناها قد اعترف ويعترف بها الموقف، ولم تنس للهوية العربية، فالحقيقة حتى الذين بدأوا حياتهم الفكرية مبشرين بالتغريب قد ما صنعوا وما صنع بهم أحفاد؟

إن بعض الناس يتحدث بسطحية ويستخف بالأمور مثلاً عن «حقبة كتابة الإسلاميات» في حياة أعلام ومفكرين من أمثال عباس محمود العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٤هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٤م] والدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] والدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥هـ = ١٨٨٨ - ١٩٥٦م] يتحدث هذا البعض عن هذا النحو، فيرجعه إلى أنهم قد صعدوا في السن وقاربوا الموت فأصابتهم نكسة تراجع عن الصعود والتشوق والثورية وبدأت مرحلة الدروشة التي اقترنت بتصفية مكاسب ثورية ثورة سنة ١٩١٩م التي أوقدت زناد هؤلاء الأعلام. وبهذا - بنظر هذا البعض - قد تحرجوا في مرحلة الهزيمة، يكتبون ما كتبوا في الإسلاميات.

وهذا الكلام السطحي والخبيث يذكرنا بما قاله هذا البعض في تفسير رفض رفاعة الطهطاوي لفلسفة أوربا، بأنه نقص وعيب وسببه الازدواج في الموقف والشخصية. ونحن نقول إن أصحاب هذه التفسيرات لم يبصروا موطن الهزيمة في مسيرة هؤلاء الأعلام الذين بدأوا متغربين ثم عادوا إلى إطار العروبة والإسلام. كانت هناك هزيمة حقاً، ولكنها كانت هزيمة

النموذج الحضاري الغربي الذي انكشف أثره ووضحت سلبياته وظهر طابعه الاستعلائي والعدواني فسقط القوم في هيمنة هذا النموذج الحضاري الغربي على عقل الأمة ووقعت لن يثمر التحضر والقوة والتقدم التي كانوا يؤملونها من ورائه وإنما قد يستثمر تشويه الموروث وخصوصيته والقضاء على فعالية هذا الموروث، لتصبح الأمة راسفة في أغلال التبعية للمركز الأوربي والغربي المسيطر في كل المجالات وبخاصة الميادين. لقد بهت النموذج الغربي في عقول هؤلاء المتغربين وفي وجدانهم وخابت أمنيتهم فيه فعادوا أدراجهم إلى أصولهم وموروثهم وفق عشقهم الأصلية والأولى. ولذلك فإننا ننظر إلى هذا التحول الذي تمثل في حقبة كتابة العقاد وطه حسين وهيكل للإسلاميات ننظر إليه كظاهرة صحية وكانتصار للموروث في صراعه ضد وافد التغريب. وفي هذا الضوء نحن نفهم مجرى أحداث فكرية حفلت بها حياة هؤلاء المفكرين والكتاب.

• فطه حسين كان يعتقد حتى كتابته [...] ثم بعد طبع كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] أن السبيل في ذلك هو تجسيد هذا الكتاب لطه حسين المتغرب الذي يقرر أن عقلية وثقافة الثقافة العربية وتصنيفه في إطار العقل اللاتيني غير [...] منه حضارة البحر المتوسط.

• ولطفي السيد [١٢٨٩ - ١٣٨٣هـ ١٨٧٢ - ١٩٦٣م] الذي بدا متغربا، ينكر العروبة القومية والسياسية وينكر «الجامعة الإسلامية» ويتحدث عنهما حديثه عن الاستعمار

لطفي السيد هذا قد عاد في أواخر حياته ينسحب عن تغريبه حتى [illegible] جديدا ينقض به ما كتبه عنه في مرحلة «التغريب» ومثل ذلك صنع طه حسين بالنسبة لموقفه من العروبة وقومية العربية. لقد عادوا بمجموعه المفكر العظيم إلى الموروث وهزم عنهم «وافد التغريب» إلى حد كبير. وكانت هذه العودة الحميدة هي الحقيقة التي طبعت بطابعها الخريطة الفكرية لهؤلاء الأعلام الذين بدءوا متغربين. فهي إذن ظاهرة صحية عادت بها هؤلاء الأعلام إلى مواقعهم مرة أخرى.

وهذه الظاهرة الصحية التي حدثت في صفوف جيل من «المتغربين الليبراليين» هي التي تبصر الآن [illegible] بها وعلامات عليها في صفوف جيل من المتغربين الماركسيين فعليها أن تحرر الخط [illegible] في التفسير [illegible] وحدة من علامات وظواهر النضج الفكري، وواحدة من علامات وظواهر الانتصار الذي يحققه «الموروث العربي الإسلامي» ضد «وافد التغريب» ليبراليا كان هذا الوافد أو شيوعيا.

ولعل [illegible] كمثال آخر على الهوية [illegible] أمة متدينة. وهذا الكلام – الذي يتردد كثيرا – ليس [illegible] قسمة من قسمات الهوية التي تتميز بها هذه العروبة الإسلامية. والتدين هنا لا يعني الشعائر وحدها كما أنه لا يعني الدروشة وإنما هو موقف من جوانب كثيرة منها:

■ الأسرة التي عدت وكانت وستظل في حضارتنا حرمة مصونة. قد اكتسب معنى «الحرمة» في الدين

صحيح أن التغريب والتحديث على النمط الغربي قد وجه الكثير من السهام إلى هذا البناء الأسري المتميز، وأصاب هذا الحرم المصون بما سمعت أحيانا على الأسى فتفككت روابط كانت محكمة العرى، وضمرت الأسرة التي كانت ممتدة .. إلخ إلخ. لكننا نلحظ تغيرا للنظرة السائدة، والتي تصنع هذه الظواهر المرضية في إطار الأمراض التي لا بد من السعي إلى البرء منها، وفي صدر البنود التي يجب أن يضمر مكانه ستسود العقيدة قاعدة الأسرة باعتبارها الحرم المصون والحصن.

ولقد أدرك أعداء هذه الأمة ما للأسرة من مكان ومكانة في هوية الأمة وبنيتها فحاولوا، وهم يخلعون قوانينها الإسلامية من على عرش المؤسسة القضائية من تعميم ذلك في محيط القانون الذي يحكم شؤون الأسرة فتركوا قوانين الأحوال الشخصية على حالها ليس من باب التسامح ولا حبا في الشريعة، ولا سعيا لدعم بناء الأسرة المسلمة وإنما مخافة ثورة التي توقعوها إن هم مسوا هوية الأمة محصورة في منطقة حساسة تلعب في الحساسية إلى مرتبة الحرم المصون.

■ والقيم والأخلاقيات هي الأخرى من ثوابت الهوية التي اصطبغت بالطابع القدسي للدين والتدين، وإلا فهي قيما كبرى يقيسون التعاضد بمقاييسه المادية، على نحو ما هو حادث في الحضارة الغربية.

قد يكون التغريب والتحديث على النمط الغربي قد حدث في واقعنا بسبب من ذلك أكبر في المدن، وبدرجة في الريف

لكن الجميع يتحدثون عن الشرعية والمشروعية ويتطرقون منه بطريقهم إلى الحدود عن القواعد وإلى الفرص التي يرجحون منه سقفاء وإلى التنوع الخارج عن النسق العام والانساق عقيدون

• ثم إن فلسفة التدبير للتنمية في حضارتنا رحبة تستوعب الاجتهاد وتستحق الدراسة الجادة والمتخصصة فقد تعدى أثر التدبير إطار القيم والأخلاقيات والعلاقات الاجتماعية ليصل إلى ميدان العلوم الطبيعية وتطبيقاتها فعرفت حضارتنا ما نسميه بـ الروح المؤمنة التي سرت لا في علوم الشرع وحدها فهو طبيعي ووارد ومألوف وإنما في العلوم العقلية أيضا التي تتسق في المنطلق والمنهجة والغاية مع علوم الشرع بل لقد سرت هذه الروح المؤمنة في العلوم الطبيعية التي نمت كعبادة لله يقدمها العلماء سعيا لاكتشاف سنن الله في كونه وسننه في مكوناته فإذا ما طبقوها تراهم قد ربطوا الوسائل بالغايات مستهدفين من تطبيقاتها تلك السعادة الدنيوية لتحقق بها تلك التي بدونها لن يستطيع تحقيق عبادة الحق لعمران الكون الذي شاء الله أن يعمروه

ونحن نسأل ما يعني إسلام مفكر فيلسوف مثل رجاء جارودي؟ وأهم من هذا ماذا يعني بالنسبة للإسلام بأنه قد وجد فيه الذي جعل الحضارة الإسلامية مرتبطة فيها العلوم والمعارف بالحكمة والعقيدة في نسيج متماسك عميق

إن الذين يدرسون تراثنا العلمي يتخطون سريعاً الروح المؤمنة في ثنايا هذا التراث، ونحللها لحقائقه ونظرياته فحسب، فقوانين هذه العلوم غير عربية ولا منفصلة عن الإيمان، فإذا قرأت من تراثنا كتب في [الأحجار والجيولوجيا] نجد المؤلف يبدأ هذه الكتب بـ [بسم الله الرحمن الرحيم] وبـ [الحمد لله] فإذا فرغ من تحريرها قال [والله أعلم]

وابن حزم الأندلسي [٣٨٤ - ٤٥٦هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م] يؤلف في الحب كتابه البديع [طوق الحمامة] فيبدأ كتابه في الحب بداية الفقيه الذي يكتب عن الإلهيات

وابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧م] وهو الفيلسوف العلمي، يقرأ كتاب أرسطو [ما بعد الطبيعة] فيستعصي عليه فهمه، ثم يعاود المحاولة حتى يقع في يده كتاب الفارابي [٢٦٠ - ٣٣٩هـ = ٨٧٤ - ٩٥٠م] يحرر له المعاني ويعينه على فهم [ما بعد الطبيعة] فماذا صنع هذا العقل المتفلسف؟ لقد وضع كتبه وأوراقه جانباً، وأخذ شيئاً من نقوده، وغادر منزله باحثاً عن الفقراء والمساكين ليتصدق عليهم شكراً لله الذي أعانه على فهم [ما بعد الطبيعة] لأرسطو

إن هذه المواقف الأمثلة بالغة الدلالة على هذا الذي نقول: إن حضارتنا العربية الإسلامية هي حضارة مؤمنة بعض تأثير التدين فيها أي فيما هو أبعد من الشعائر والقيم والأخلاقيات والمعاملات فيسري بروحه المؤمنة في العلوم حتى ما كان منها خاصاً بالطبيعة، وفي تطبيقات هذه العلوم

هذا عن حضارتنا العربية الإسلامية

أما الذين يقرءون مؤلفات الحضارة الغربية في العلوم الطبيعية فإنهم لن يجدوا «الروح المؤمنة» أثر بل إنهم سيجدون النقيض على نحو أكثر، فهذه المؤلفات قد لا تتحدث عن الإلحاد ولا تجادل في إنكار وجود خالق صانع وقادر في هذا الكون، ولا تدعو إلى الهرطقة والزندقة ولكنها تصحب القارئ من البداية إلى النهاية فتقف بعقله عند حدود المحسوس والأسباب والمسببات في إطار هذا المحسوس وفي خلال ذلك كله فإنها لا تشعر القارئ بوجود قوة خالقة وراء هذا المحسوس بل ولا بالحاجة إلى وجود هذه القوة .. إن هذه المؤلفات حتى إذا لم تنكر صراحة وجود هذه القوة الخالقة فإنها تزرع في الذهن الإنساني تصوراً بكون لا يحتاج الإنسان في إدراكه إلى أكثر من الأسباب والمسببات المادية التي يجدها ويلمسها أمام حواسه، وهذا المنهج الغربي وهذه الروح الغربية تكون العقلية غير المؤمنة، ولذلك فإننا حين نتحدث عن الروح المادية واللادينية للحضارة الغربية لا نقف بمقصدنا فقط عند الطابع النفعي في القيم والأخلاقيات وإنما نقصد إلى ما أشرنا إليه من سريان «الروح الملحدة» في التراث العلمي للحضارة الغربية، الأمر الذي عرفنا وسيعرفنا عن حضارتنا العربية الإسلامية التي تميزت بروحها المؤمنة تسري في كل العلوم والفنون وسائر الميادين والمجالات.

فنحن عندما نقول إن حضارتنا تميزت بـ «الروح المؤمنة» التي هي أثر من آثار «الدين» في هويتها الحضارية، عندما

يقول ذلك لا ليتفرنس، وإنما يقصد إلى ما قصد إليه جمال
الدين الأفغاني عندما تحدث عن الشرق بمسيحيه وملاحدته
ووثنيه الذي صبغ به إنسان حضارتنا العربي المسلم فهو
حتى لو مرق من دينه وتزندق وألحد، فإن أثر الدين وتأثيره
ظل مطبوعاً فيه، مثله في ذلك كمثل أثر الجرح في الجسم بعد
الشفاء والاندمال، فهذا الإنسان لا يستطيع الخروج من جلده
كما يقولون.

والوسطية التي هي كذلك في حضارتنا هوية ووحدة من
قسمات الهوية. والوسطية هنا لا تعني المعنى السوقي الذي
شاع بين العامة من المثقفين والسياسيين لهذا المصطلح
المظلوم؛ لا تعني انعدام الوضوح والافتقار للموقف المحدد
والسعي على مختلف الحبال، والإمساك بالعصا من منتصفها
إلخ.. وإنما تعني الوسطية في المفهوم الإسلامي «الأمة
الوسط» و«الموقف الوسط» الذي هو عدل بين ظلمين وحق
بين باطلين واعتدال بين تطرفين، ليس بالمعنى الرياضي الذي
يجعل القضية وسطاً متوسطاً بين قطبين منفصلين، ووجود مسافة
عن يمين القضية وعن يسارها متساوية تفصل بينها وبينهما
وإنما بمعنى اشتمال الموقف الوسط على عناصر الحق في
النقيضين اللذين يمكن جمعهما والتأليف بينهما. «فالعقلانية
الإسلامية» موقف وسط ليس بمعنى التوسط بين «العقل
والنقل» وإنما بمعنى التأليف بين برهان «العقل
و«النقل» جميعاً. و«المادية الإسلامية» موقف وسط ليس

بمعنى التوسط بين المادة والروح وإنما بمعنى الجمع بين محاسنهما والضروري منهما لخلق الإنسان السوي و«الشخصية الإسلامية» شخصية وسط لا بمعنى انعدام القطبية وإنما بمعنى جمعها بين فضائل «الجسد» و«الروح» وفضائل «الدنيا» و«الآخرة» وفضائل «الدين» و«الدنيا» وفضائل «الفردية» و«الجماعية» إلخ إلخ

ذلك هو معنى «الوسطية» التي هي روح الحضارة العربية الإسلامية ومزاجها ولذلك أجد إنساناً عندما نجد في التراث الفلسفي للحضارة الغربية تياراً مادياً ملحداً منذ اليونان وحتى العصر الحديث وهذا التيار قديم وعريق وسابق على ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣م] وعلى الماركسية كما يعرف الجميع ونحن لا نجد في التراث الفلسفي لحضارتنا العربية الإسلامية هذا التيار المادي الملحد؟ وهل المصادفة هي التي صنعت ذلك ووقفت خلفه؟! لا أعتقد.. ولا أظن.. وإنما مرجع هذا الافتراق وذلك التمايز إلى تميز حضارتنا بالروح الوسطية. وبسبب هذه الوسطية التي وازنت ما بين «النقل» و«العقل» فأصبح لنا «عقلانية إسلامية» تميزت عن «العقلانية اليونانية» التي لم تعرف «النقل الوحي». فثمر هذا التوازن منظومة فكرية متميزة

وإنه لأمر يستحق النظر والتأمل، بل ويستوجب التنبيه، وهو أن نجد أغلب الفلاسفة والمتكلمين والمفكرين المسلمين قد قالوا بـ«قدم العالم»، وهم، في ذات الوقت، مؤمنون بوجود خالق لهذا العالم القديم. لقد جمعوا بالمنهج الوسطي الذي يعني [illegible]

للتلفيق بين تكون ... قدم العالم وبين الايمان ... يتحقق بهذا
... على خير وجه ... بات القضية هي التي قسمت الفكر
في الحضارة العربية ... الى تيارين ...
الذين قالوا بقدم المادة انكروا وجود الخالق لأنهم رأوهما
ضدين لا يجتمعان ولا يلتقيان ...
... ينكرون قدم المادة لأن الامرين عندهم ايضا ضدان لا
يجتمعان ولا يلتقيان ولقد تكون من الاولين ...
ومن الاخيرين ... الغزالي على النحو المألوف والمعروف
لدارسي الفلسفة العربية

اما في حضارتنا التي تميزت بالوسطية حضارة الامة
الوسط فقد ... المحققين وجدت [المعتزلة] مثلا ...
يقولون بالخلق من العدم يستدلون على ...
ووجدت ابن رشد مثلا يقول ان ... الوجود ... تكون
الموجود بالقوة ... الخلق هو الخلق المستمر الذي ...
به الموجود بالقوة الى الوجود بالفعل ... والوجود بالفعل ...
وجود بالقوة وهكذا باستمرار نحو دائم لا ينتهي في هذا
الوجود كما يقول ... وذلك ...
العالم ... وهو ... المعنى الذي عبر عنه الامام محمد
عبده بقوله ... كمال الله ...

هكذا وجدنا في الحضارة العربية ... منهجا يتميز
ومستمر عبر تاريخها الطويل ...
ولا شبيه في تاريخ الفكري والفلسفي ...

إن غير ذلك هو معيار الحضارات الوسطية التي هي مرآة حضاري مختلف، انحرفت الحضارات [illegible] [illegible] وتعسف الدين

فالمعتزلة وهم رواد وصناع علم الكلام الإسلامي الذي هو فلسفة إسلامية والذين مثلوا فرسان العقلانية الإسلامية، هم الذين أسسوا فلسفتنا على غير [illegible] وخصوصية [illegible] تتناقض بفلسفة مع التنوير في الحضارة الغربية [illegible] بينهما لحروب

وهؤلاء المعتزلة عندما قالوا لخصومهم من أهل [illegible] النصوصيين [illegible] الأدلة ثلاثة هي الكتاب والسنة والإجماع قالوا هم [illegible] هي [illegible] الكتاب والسنة والإجماع وعللوا ذلك بالحاجة إلى العقل كقاض حاكم في التفسير والتحكم [illegible] والمطلق والمقيد، والخاص والعام إلخ إلخ من آيات الكتاب. لأن هذا الكتاب الذي هو معجزة الإسلام والذي هو [illegible] معجزة عقلية عرضت على العقل [illegible] التكليف [illegible] الحكم فيها ولم [illegible] هذا العقل وإخراجه عن الأطر التي أحكمتها وتحكمها [illegible]

فنحن هنا أمام [illegible] وهي [illegible] مختلفة [illegible] عن الفلسفة [illegible] أمام منظومة فكرية ومزاج حضاري [illegible] بين حضارتنا والحضارة العربية على وجه التحديد [illegible] بينها وبين كثير من الحضارات

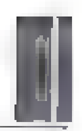
نحن نعرف أن المسيحية الأولى قد بلغت «في الصوفية المسالمة وفي السلام الصوفي» إلى حد الدعوة إلى إدارة الظهر للدنيا، ومن ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن غصبك ثوبك، فأعطه القميص!.. إلخ.. إلخ.

ونعرف أن الحضارة الهندية قد بلغت في تصوفها حد الدعوة لإفناء الجسد، بل لقد تعبدت بتعذيبه.

أما الحضارة الغربية فإن روحها المادية النفعية قد أصبحت في العالم، سائدة فيها السيادة المطلقة، وفي كل الميادين، حتى لقد صوّرت المسيحية المتصوفة فغدت فيها طقوساً وشعائر لا علاقة لها بالصورة المثالية التي بدأت عليها!

لكن حضارتنا كما وصفنا قد تميزت بالمزج الوسطي المعتدل الذي وازن ويوازن بين ما حسبه الآخرون - في الحضارات الأخرى - متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها فضلاً عن التأليف والتوفيق.

هكذا أصبح باستطاعتنا أن نقول: إن سمات هي مثل «العروبة» و«التدين» و«الوسطية»، إنما تمثل، في حضارتنا «هوية».. وإن علينا أن نتخذ منها معيار لصلاح أو عدم صلاح لصحة أو عدم صحة أي وافد جديد، بل وأي موروث «قديم»



التشكيك فى ثبات الهويـة

لكل شخص ند معه ... ل ب تسميه بوىت و هويته. عد لا يستعصي عن التصور والتعبير ولقد صرت بي بعض الأصدقاء مثلا يدس به علي ذلك فتان ... المصدته يشكل ... ب تور بقسر من شخص

وأنا أقول إن الأمر ليس بهذه البساطة ولذلك فأنا أدعو إلى تأمل هذه الحقائق ... هي في رأيي ظواهر جديرة به تستحق نظر عميق و تفكر ... ى يستخلص منه الدلالة

■ ... كونفوشيوس [٥٥١ - ٤٧٩ ق م] لا ... حد في الصين حتى الآن

■ و لا سلام ... ص حيث في ... بخارى ... عد التيسير عنه ... كذ هو حي في الأزهر الشريف

■ و لا نتوكسه طلب جنة في روسيا ... كنيسة كذ هو جثة في مقر ... مكراد أسرته

حدث ذلك ولا يزال يحدث رغم القرون الطوال، ورغم عوامل التطور والتغير، الداخلية منها والخارجية، الأمر الذي يحقق معتقد ثبات الثوابت في الهوية ولسان ذراء المتغيرات.

• وتركيا - والإسلام هويتها - قد حدث فيها كمال أتاتورك [1298 - 1357هـ = 1881 - 1938م] بدعم من عوامل داخلية وخارجية، فنحّى الإسلام جانبًا، وفرض العلمانية على تركيا، وفرض على ذلك قراءة تغريبية، والآن يسأل: ما هي تركيا التي تعلمنت منها شريحة محدودة جدًا، واستمرت ثمرة ... البعث الإسلامي الذي يهز تركيا هزًا عنيفًا، وما الانقلاب العلماني الذي قاده جنرالات حلف الأطلنطي بقيادة أمريكا في منتصف تسعينيات القرن العشرين إلا نموذج لمحاولات تغريب الحيلولة بين الإسلام وبين السيادة في هذه البلاد من جديد.

• والخديو إسماعيل [1245 - 1312هـ = 1830 - 1895م] في مصر قد عبر عن مصر أنها قد غدت قطعة من أوروبا في عصره، ثم جاء الاستعمار الإنجليزي يحتج على هذا الطريق، ومر قرن من الزمان على سيادة هذا النهج في مصر، والآن يسأل: أين مصر تلك التي أصبحت قطعة من أوروبا؟ وأين مصر تلك التي استعصت على أن تصبح قطعة من أوروبا؟ إن الشريحة التي تغربت هي التي حسبت أنها قد أصبحت جزءًا من أوروبا، أما جسد الأمة الحقيقي فإنه لم ولن يصبح قطعة من أوروبا، وعندما يجد الجد وتتحقق سلامة الحضور يتضح وجدان

لأمة عربية بتجسيد بلادي بلادي وتجسيد الإسلام هو الحصر الذي تنحصر به وتبرز هويته كتجسيد النشيد الذي تستند إليه ركائز محاولات التشويه والتسويه والتشويه بين ويستبيح يوما بعد يوم من شريحة معتبرة ممن انتسبوا، يعودون إلى قواعد هويتهم الحضارية ليبرهنوا كانوا في تعريبهم او شموليين!

إن هذا ما نسميه بـ «الهوية» هو الجوهر والثوابت والبصمة والمزاج، والروح في هذه الحضارة، وليس من السهل اقتلاعها لأنها من الثوابت ويبقى من المتغيرات وقد نسبت الصيغة وتعابير المفهوم والمعاكس لها فتحققت كلمة تتحين فرصة الهزة او الزلزال لتبرز وتسود من جديد

والذين قرءوا تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية يعلمون كيف سارت سياسة الفرنسة شوطا كبيرا على درب الدمج حتى حسب لأنصارها أن الجزائر قد غدت بالفعل الامتداد الطبيعي الفرنسي لفرنسا [الأم] عبر البحر المتوسط ويعلمون كيف كتب واحد من هؤلاء المتغربين، الذين اندمجوا في فرنسا الأم يسخر من فكرة وجود جزائر عربية مسلمة متميزة عن «فرنسا الأم»، بعنوان مقالة في حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين بعبارة [من يدعي على وطن اسمه الجزائر]!

وهؤلاء الذين قرءوا تاريخ الجزائر يعلمون جيدا أن هذه الكلمات التي عبرت عن شريحة التي تعربت وتفرنست ثم تمثر

لا بالوهم السطحي الذي علا الحبر جوهر هوية البلد، فلقد كانت محروسة وكان الإسلام هوية الجزائر كما كان الحبر ثم اتصفت في رحب الوهم وحققت تحرير المصير الذي تعرفون ولم يفلح معها كل ما صنعه الاستعمار على امتداد أكثر من قرن من تطوير وتغيير.

التفاعل الحضارى

وغني عن البيان [illegible] كما سبق في ذلك من [illegible] أنه من
الحضاري هو موقف مختلف تماماً عن الانغلاق و[illegible] العداء
الحضاري ورفض الانفتاح على الحضارات الأخرى هو موقف
ضار فضلاً عن أنه غير ممكن في ظروف تزايد حجم الاتصال
والتواصل التي تزداد فعالياتها في العصر الذي نعيش فيه [illegible]
التفاعل الحضاري إنما ينطلق من حقيقة موضوعية تؤكد وجود
سمات وخصائص وقسمات تمايز ما بين الحضارات العتيقة
والعريقة تعبيراً عن تمايز الشخصيات القومية والتكوينات
التاريخية لأمم تلك الحضارات. ولقد أثبتت سير التاريخ الإنساني
ولا يزال يثبت ويؤكد أن هذا التمايز لم يمنع من التقاء هذه
الحضارات وتفاعلها وأن هذا التفاعل عندما كان صحيحاً ومن
موقع الاستقلال لا التبعية وبنهج راشد ورشيد كانت ثمرته
طيبة وخيرة بل وضرورية لمختلف الأطراف وكانت نتيجته دعماً
للتمايز وليس إلغاء له وخلافاً للانغلاق الذي يحمل مخاطر
الجمود والضمور والانقراض للحضارة التي تسلك سبيل الانغلاق

... الطرفين في حضارتنا في وضعها الراهن ... وفرضت
عليها عدة تحديات كبيرة من مثل التخلف الموروث من
عصور التراجع والانحطاط المملوكية العثمانية، ومن مثل
التغريب الذي جاءت به الغزوة الاستعمارية الحديثة فسعت
إلى هذه التحديات قد كادت أن تعزل حضارتنا عن مسيرتها على
أصولها، وذلك باقتلاعها اقتلاعا لتحل محلها النموذج الحضاري
الغربي بحجة أنه النموذج العصري القادر على تحديث
الحياة وتغيير «التخلف الموروث».

وإذا كنا نرفض «التغريب» للنموذج الغربي، حرصا على
استقلالنا الحضاري ... في صلاحيته في بلادنا، وفي
صلاحيته ... الغربيون فيه ... لا تؤهله لصلاحيته في
بلادنا، فإننا نرفض، كذلك، أن يكون التخلف الموروث هو
البديل للتغريب، فهذا التخلف الموروث لا يعبر عن ثوابت
حضارتنا وخصوصيتها، لأنه في عمقه وافد سلوكيات أو عادات
وأحكام من العصور المملوكية العثمانية عصر التدهور، فهو تعبير
عن مجرى الطبيعي لتطور النموذج الحضاري الأصيل.

وبالتالي فإن رفض التخلف الموروث ورفض «التغريب»
يضعه على عاتق الفكر العربي والإسلامي تبعة المهمة الأكبر والأعظم
مهمة التجديد ... بلورة المشروع الحضاري النهضوي البديل.

... انطلاقا من الاحتفاظ بهويتنا ... في الحضارات
الأخرى عن «عوامل» القوة التي تدعم استقلال هذه الهوية، ولا
تطمسها، والتي تزيد هذه الهوية فعالية، ولا تضعفها، والتي

تخرج هذه الهوية من الكمون إلى الوجود، وتقوم إلى النهوض
والنهوض بالفعل.. منطلقًا من هذه المصادر، إضافة إلى من
هذه المنطلقات، إلى صياغة ما تقتضيه المعاصرة والتحديات التي تواجه
الأمة وسبل تلبية احتياجاتها، وتجديد طاقتها، وتحقيق سعيها ويبقى
لا سبيل إلى الانطلاق، إلا بعد استخلاص الهوية من
«الموروث»، ضرورة الأخذ عن الحضارات الأخرى عن «عوده
نقوه» حتى يكتمل بناء المشروع النهضوي الكامل المنشود تجديده

وإذا كان بعض من «الإسلاميين الخصوصيين» يتشكك ويشكك
في الإسلامية وجدوى الانفتاح على الحضارات الأخرى والاستفادة
من هذه الحضارات

وإذا كان بعض من «المتغربين» يتشكك ويشكك في قدرة
«الإسلاميين» بإطلاق على ممارسة الانفتاح الحضاري، فإننا
نقول: إن ما أشرنا إليه من ضرورة التفاعل الحضاري، ليس
كلامًا غريبًا على النسيج الفكري الإسلامي، ولا هو بالحديث
الجديد غير المسبوق، بل إن هذا الموقف هو الموقف الفكري
الإسلامي الأصيل والأصل

فالرسول ﷺ من قبل أربعة عشر قرنًا هو الذي يقول عن
«الحكمة» إنها «الضالة» في غير محدود، فليست محدودة
وعمومها فقط هي المساوية للإصابة والحكمة

وهو ﷺ الذي يعلم أمته ضرورة التماس الحكمة من
مصادرها بصرف النظر عن المواطن والمعتقدات، فهو

الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، وحيث وجدها فهو أحق الناس بها.

■ وفقهاء الإسلام هم الذين شرعوا لضرورة الاستمرارية في مسيرة الفكر الإنساني، فقعدوا أن شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ». فليس هناك حرج يمنعنا من أن نستفيد من الآخرين وأن نستلهم مواد اجتهادنا، وأن نسعى إلى التوحيد الصحي والضروري الذي يقوي استقلالنا ويدعم هويتنا و[illegible].

■ والكندي الفيلسوف [٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م] هو القائل: «ينبغي ألا نستحي من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها».

■ وابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ـ ١٠٢٦ ـ ١١٩٨م] يقول: إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك، سواء أكان مشاركًا لنا في الملة أو غير مشارك، طالما كان صوابًا.

■ وجمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] هو القائل: إن العلم وإنه هو [illegible] ولا [illegible] [illegible] ولا [illegible] [illegible] بالحقيقة [illegible] حيث يوجد الدين.

«والتمدن الأوروبي هو في الحقيقة ثمرة للسنن التي [illegible] على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني، ولا مانع للشرقي، في نهضته أن يقف موقف الأوروبي في نهضته، ولابد من التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم. أما المقلدون فإنهم يشوهون وجه الأمة ويمسخون

ثروتها، ويحطون من شأنها. [illegible] يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب».

■ ورفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م] هو الذي يقول: «[illegible] عن [illegible] التعارف البشرية المدنية. والعلوم الحكمية العملية [illegible] وفلسفتهم فهي مليئة بالحشوات الضلالية، المخالفة لسائر الكتب السماوية».

وعلى هذا الدرب سار رواد المد الإسلامي المعاصر

■ فكتب حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] وهو الذي رفض ما في الحضارة الغربية من مادية والحاد وتحلل وإباحية [illegible] كتب يقول: «إن صبغة الإسلام، التي تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب، لا تمنع أبدًا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعد الإسلام الكلية وأصوله العامة. إنه يدعو إلى الأخذ من كل شيء أحسنه وينادي بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. ولا يمنع أن تقتبس الأمة الإسلامية الخير من أي مكان، فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل نافع من غيرنا ونصبغه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا».

■ والمودودي [١٣٢١ - ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩م] - وهو من أبرز من انتقد الطابع المادي للحضارة الغربية - هو القائل: «إن موقف الإسلام من الأخذ والعطاء بين الحضارات هو شيء

عطاؤه في الأمم التي تختلط بعضها ببعض فلا تحجزه قيود بل يريد له الازدهار. فالإسلام لا يريد لجدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة، فلا تنتفع في حضارتها من أمة أخرى شيئاً.

• وسيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] وهو الذي سمى الحضارة الغربية «الجاهلية الجديدة» نراه يدعو إلى الإسلام «كتصور مستقل للوجود والحياة، يستقل به المسلمون منهجاً تتميز به الحياة كلها».

وفي ذات الوقت، يدعو سيد قطب إلى البحث عن الحضارة الغربية بفروعها العلمية التي هي ثمرة «العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي».

• • •

إن لم يكن هناك خلاف في حضارتنا على ضرورة التفاعل الحضاري منذ عهد الرسول ﷺ إلى الفقهاء والفلاسفة ورواد التجديد والصحوة الإسلامية وضرورة تفاعل هذه الحضارة في التفاعل مع غيرها من الحضارات، فليس هناك خلاف حول هذا الموضوع لعدة كما الاجماع يتفق في حضارتنا على ضرورة التمييز بين هوية الأمة التي تميز حضارتها، وبين «العلوم الخادمة» على الحقائق والقوانين وتطبيقاتها، وهي التي لا وطن لها ولا جنس، ولا تتشكل بأشكال البيئات الحضارية المتمايزة.

فالهوية لا بد وأن نبحث عنها في «الموروث» والعلوم العلمية وتطبيقاتها وما هو صالح ومفيد وضروري من

للحضاري الإنسانية وكل ما يمثل الحضاري فوق الهوية الحضارية المتميزة لأي أمة تسعى إلى تنميته وتقنينه وتوظفه لخدمة المشروع الحضاري المتميز وخدمة الهوية الحضارية المتميزة.

فليس هناك أي خلاف إذن حول ضرورة الانفتاح على الحضارات، وضرورة التفاعل مع تراث الحضارات من موقع الراشد المستقل، وإنما الخلاف كل الخلاف هو مع دعاة التبعية الحضارية الذين يزعمون - لتبرير هذه التبعية - أن الحضارة الغربية هي الحضارة الإنسانية والعالمية والعصرية الوحيدة، وأنها النموذج الوحيد للتحضر والتحديث، وهم لذلك ينكرون التعددية الحضارية والتميز الحضاري .. إن الخلاف كل الخلاف هو مع هذه المقولة المغلوطة والدعوى الخطرة والباطلة.

إننا إذا وضعنا يدنا على الوحدة الحضارية التي يعني بها المعاصرون، فسنجد هذه تراث الحضارات وتعددها في الحضارة، فهل يعلم الذين يزعمون وحدة الحضارة التي هي في نظرهم الحضارة الغربية ما كتبه السياسي الاستعماري الأمريكي جون فوستر دالاس [١٨٨٨ - ١٩٥٩م] عن وحدة الحضارة الغربية، التي لن تصمد في نظره إلا بدعم الصهيونية وحركتها وكيانها العنصري الاستيطاني الذي أقامته في فلسطين؟ هل يعلمون ذلك؟ وإذا علموا فهل يظلون على دعوتهم لأمتنا العربية الإسلامية إلى التحضر بذات الحضارة التي تجمع

بين ذلك و ... المسيحية والمشرق ... وهو ... النموذج
الحضاري الذي بخصوصيته الاثنية ... المعروف بالاسلام.

* * *

إننا لا نؤمن بالتحنيط في الموقف تجاه الموروث أو نوقف ... فالموقف الحضاري الذي نريد يخضع للفحص والانتقاء والاختيار والمعيار هنا هو مدى ما يمثله من عناصر القوة تتسق مع طبيعة التحضر ونريد هذه العناصر قوة تعيننا على ان تكون ملائمة سبيلا للتقدم والنهوض ... موروثنا فهو ... الحضارة ويدفع اسلافنا للعطاء وتطوير عبقرية امتنا وتجلي الخصائص التي تميز حضارتنا العربية الاسلامية عن غيرها من الحضارات.

وهذا الموروث ... الذي يمثل الاسلام مكونه الاول ومصدر الصحة والنبل فيه ليس تاريخا مضى وانقضى ولا اكفان موتى ولا قيودا تشد الحاضر الى ماض سحيق وانما هو طاقة مبدعة وخلاقة وروح سارية في عقل الامة ووجدانها. واذا كان تمايزنا الحضاري، وعدوانية الحضارة الغربية، يفرضان علينا الحذر عندما نبحر في «الوافد» الحضاري فانه يجب الا ننسى ... «التجديد» هو سبيلنا المأمول الى تمييز «الثوابت» من «المتغيرات» في موروثنا وفرز «المقدس» من «العادي» فبالتجديد وحده نعود الحياة لهذا الموروث ... فتتحقق الاستمرارية الحضارية دونما قيود على توجهنا وتطورنا الى الامام

نحو مشروع حضارى متميز..

ونحن نؤمن أن «النهضة» - بكل ما تعني من تغيير شامل وجذري - هي سبيل امتنا الوحيد لعبور ما يفرضه عليها الاعداء من تحديات.. ونؤمن كذلك أن المهمة الملحة لحركتنا الفكرية هي بلورة المشروع الحضاري الذي هو أساس هذه النهضة.. وإذا كنا لا نزعم أننا نملك كل الوضوح الذي يوقفنا على صورة معالم هذا المشروع.. والذي نعتقد أن صياغته لا بد وأن تكون ثمرة عمل جماعي كبير - فإننا ندعو كل المؤمنين بالمشروع الحضاري، والمدركين لأهمية وضرورة استقلال أمتنا الحضاري، ندعوهم إلى الإسهام في بلورة ملامح هذا المشروع الذي هو طوق النجاة لهذه الأمة من مخاطر الجمود والتخلف الموروث.. ومن مخاطر المسخ القومي والمسخ الحضاري والتشوه المعرفي الذي تمارسه الحضارة الغربية مع حضارتنا وكل حضارات الأمم التي ابتليت بالاستعمار والتغريب.

وفي إطار هذه المهمة الفكرية، فربما كان مفيدا أن نضع أمام العقل العربي والمسلم «نقاطا» هي أشبه ما تكون «برؤوس

الموضوعات، والمحاور التي نعتقد أنها في قسمات صورة ذلك المشروع الحضاري العربي الإسلامي الجديد:

■ إنه يدعو إلى تأمل «التوحيد» باعتباره فلسفة الأمة وروح حضارتها والبوصلة الموجهة لعقلها في نظرتها للكون وفي الألوهية والعمران وفي التأليف بين الوطني والقومي والإسلامي. فالتوحيد ملمح من أبرز ملامح حضارتنا- بل لا نغالي إذا قلنا إنها حضارة التوحيد- إنه ملمح تميز عن ملامح حضارات [illegible] وإن جاءت [illegible] جميعها، فحتى نجده في تراث مصر القديمة عند [illegible] [١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق.م] الذي [illegible] [illegible] الكون كله [illegible] من موروث [illegible] من [illegible] الآلهة [illegible] وبه تميزت عن صورة التوحيد في [العهد القديم] تلك التي جعلت «التوحيد» أقرب ما يكون إلى [illegible] فالله عندهم هو إله لبني إسرائيل وحدهم، أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها.

وحتى وثنية العرب القديمة في جاهليتهم التي سبقت الإسلام، فإنها كانت «انحرافا» عن جوهر ونقاء هذا «التوحيد»:

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾[1]

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2]

وهذه الروح التوحيدية التي سرت في روح الحضارة [illegible] «الهوية» وثوابت من [illegible] هي التي [illegible]

(1) لقمان: ٢٥. (2) الزمر: ٣.

المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات «الأسس الشرقية الاعتقادية» عبدت أصبحتها بالتأثيرات «الهلينية» بعد خروجها من الإطار النقي للتوحيد! فكان دخول شعوب الشرق في دين الله الإسلام- أفواجًا، دونما إكراه بالترغيب أو الترهيب رغم حرية الاعتقاد التي أبقت المؤسسات الكنسية وما لها من تراث في الجدل وخبرات في التبشير فلقد كان التوحيد الإسلامي، الذي بلغ الذروة في البساطة والنقاء، والذي أعاد إلى هذه العقيدة- التي هي جوهر الدين – صفاءها ونقاءها كان هذا «التوحيد» هو «الهوية» التي أعادت شريعة الإسلام الكشف عن جوهرها والتي حددت الأساس الشرعي لها.

ولذلك فنحن ندعو إلى تأمل هذا «التوحيد» ودوره ومكانته التي من الممكن أن يكشف عنها مشروعنا الحضاري المنشود.

• وندعو إلى تأمل «العروبة» بمعناها الحضاري غير العرقي أو العنصري وتأمل العلاقة العضوية التي تربطها بالإسلام، بمعناه الحضاري الذي يتجاوز نطاق الشعائر والطقوس فلا يقتصر عليها وحدها ففي هذه العلاقة نفي التناقض المزعوم بين الدائرة القومية والدائرة الإسلامية وترتيب الأولويات للعمل انطلاقا من الدائرة الوطنية فالقومية فالإسلامية، فالإنسانية.

ندعو إلى تأمل علاقة «العروبة» بـ «الإسلام»، وما تعطي هذه العلاقة من مكانات وملامح في مشروعنا الحضاري الذي نفكر فيه.

• وندعو إلى تأمل «الوسطية الإسلامية» كمعيار للتوازن

وبعث على الموازنة التي غدت ملمحا من ملامح شخصيتنا الحضارية ومن ثم فإنها ملمح من ملامح مشروعنا الحضارى الذي ندعو إليه.

إنني أتصور أن «وسطيتنا الإسلامية» هذه ستمنح لمشروعنا الحضاري ذاتيه متميزة.

■ فهي الفطرة للإنسان وسطية فهو مراد خليفة لله في الأرض وليس السيد المطلق فيها للكون والمصالحين من لخدمة المستوى.

■ وفي الحرية الاختيار في حدود الثوابت التي تمثل إطار الاختيار ومن ثم فهنا وسطية بين الليبرالية المطلقة وبين الشمولية المطلقة. قد تكون «الديمقراطية الموجهة» هي قرب الصيغ للتعبير عنها اتفاق على الثوابت والمعايير وإطار المشروعية ثم تعددية في السبل والمناهج والفروع والتفاصيل.

■ وفي الاقتصاد ملكية الرقبة في الثروة القومية لله وحده وللأمة ككل مستخلفة عن الله في الأموال فلا مكان للحرية الاقتصادية والملكية الفردية بمعناها المطلق في الفلسفة الليبرالية الغربية ولا مكان كذلك لتجريد الإنسان الفرد من أي حق في التملك الذي يحفزه للخلق والتنمية والابداع لأن كون «الملكية الحقيقية لله» يصحبه كون الملكية المجازية للفرد أي ملكية المنفعة التي هي الوظيفة الاجتماعية للمال.

■ وفي طبيعة السلطة وعلاقة الدين بالدولة نتوسط بين «الكهانة ووحدة الدين والدولة وبين العلمانية» وفصل الدين

عن الدولة يتجسد في التمييز بين الدين والدولة، فالدولة في مشروعنا الحضاري إسلامية، للشريعة بمقاصدها الهيمنة عليها، والمشروعية في قانونها، لكنها ليست الدولة الدينية التي تحكم بالحق الإلهي، و رجال الدين فيضفون العصمة والقداسة على البشر وتشريعاتهم باسم الدين.

- وفي مفهوم «الأمة» نتوسط بين المفهوم القومي العلماني - الذي يستبعد الدين من الفلسفة المكونة للأمة - وبين المفهوم الكهنوتي - الذي يستبعد غير المسلمين من إطار «الأمة» - فالأمة بالمعنى القومي تستوعب كل الذين وحدت بينهم السمات القومية، فهم جميعًا أمة المواطنة يستوون ويتساوون في حقوقها وواجباتها، ثم هم جميعًا يجمعهم الاحتكام إلى الشريعة التي هي - في أعلى مبادئها - قانون وضعي محكوم بإطار الإسلام وحدوده وروحه.

وعلاقة هذه الأمة بالدين علاقة وثيقة، فدين الله واحد، هو دين التوحيد في الألوهية والإيمان بالبعث والعمل الصالح، وفي إطار هذا «الدين» - الذي هو واحد أزلا وأبدًا - تتعدد «الشرائع» - التي هي طرق التدين بهذا الدين - أزلا وأبدًا كذلك، فالوحدة في الدين والتعدد في الشرائع سنة، والاحتكام إلى شريعة الإسلام المدنية - التي لا نقيض لها ولا بديل عنها في التشريع غير الإسلامية - هي صيغة الوفاق والاتفاق بين الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة في المشروع الحضاري الذي ندعو إليه.

ومكان الإسلام في تحديد مفهوم «الأمة» هو الرباط الذي يجمع الأقليات المسلمة غير العربية الى الأغلبية التي جمعت بين العروبة والإسلام!

تلك نماذج لملامح في هذا المشروع الحضـــاري العربـي الإسلامي، وهي بالطبع لا تخرج عن إطار النموذج الذي نتصور كما علت الجهود الفردية والجماعية التي تغنيها وتكملها، حتى تتحول الى مشروع مؤهل لأن ننهض بالأمة وننهض به الأمة من واقعها الراهن، الذي تكالبت عليها فيه التحديات، وخاصة تحدي «التغريب» وتحدي «التخلف الموروث».

وإن كنا نعتقد بالأهمية التي تمثلها هذه النماذج لهذه الملامح من «المشروع الحضـاري» المنشود، فإن الأهم هو الاتفاق على:

- مبدأ التمايز الحضاري، والتعددية الحضارية
- وضرورة الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية

ثم تستجيب جهودنا في بلورة ملامح هذا المشروع الكافل لأمتنا النهضة والاستقلال.

تلك هي الكلمة السواء التي ندعو اليها كل الذين يؤمنون بأن الاستقلال الحضاري هو طوق النجاة لأمتنا العربية الإسلامية من مخاطر التحديات التي فرضها ويفرضها أعداؤها الكثيرون.



الأزهر والتغريب

تمهيد

• أما الأزهر فهو — رغم انعدام الحاجة إلى تعريف مشاهير الأعلام

ذلك «المسجد - الجامع - الجامعة» الذي اقترن عند نشأته بنشأة القاهرة، فاعتبرا تحول مصر من دور «الولاية» إلى مركز «الخلافة»، فكان منارة أهلتها لتنهض بعبء هذا الدور الجديد

لقد شرع جوهر الصقلي [٨٣١هـ - ٩٩٢م] في بنائه في [٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ - ٣ أبريل سنة ٩٧٠م] وتم بناؤه بعد عامين [٩ رمضان سنة ٣٦١هـ - ١٤ يونيو ٩٧٢م]

وفي جانب الجامع ... دروس العلم في صفر سنة ٣٦٥هـ أكتوبر سنة ٩٧٥م، أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله [٣١٩ - ٣٦٥هـ = ٩٣١ - ٩٧٥م]

فلما كان عهد الخليفة العزيز [٣٦٥ - ٣٨٦هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦م] استوى الأزهر جامعة علمية ومنارة فكرية، وقبلة للعلماء والطلاب من كل الأجناس والأقاليم والبلاد والمذاهب وكان ذلك في سنة [٣٧٧هـ - ٩٨٨م] ثم توالت الحروب ... الدول، وتغيرت النظم، وتنوعت صروف الدهر والأزهر باق يزداد رسوخًا وتتزايد دوره، ويتوهج ضياؤه فلقد حمى العربية والإسلام ... في حياة أهله ... ولحارس الذي نهض وينهض بتكليف من الله سبحانه ...

قال ﷻ: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(1)

هذا عن الأزهر.

■ أما «التغريب» فإنه الحاضنة الفكرية للحضارة الغربية المتميزة بطابعها المادي وغير المعتقدة بالأسطورة «المؤمنة» بكون. والحاجة إلى فصل الدنيا عن الدين، وتحرير الدولة من إطار الدين، والتنحية للنصوص والمأثورات الدينية من طريق العقل في كافة الميادين.

وإذا كانت حملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] قد مثلت طلائع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على ديار العروبة وعالم الإسلام فإن هذه الغزوة الحديثة قد تميزت عن الغزوة الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] في الدروس. فالصليبيون قد جاءوا إلى بلادنا فرسانًا مقاتلين، ليس وراءهم فكر وليست لديهم مواهب حضارية ولا يملكون سوى الجهل والفروسية والتدمير. ولذلك فعندما أفرز وطننا العربي مؤسسات فروسية ودولها [زنكية وأيوبية ومملوكية] وقهر بها الفرسان الصليبيين لم تخلف الغزوة الصليبية وراءها أية آثار. وكان تحرير السلطان الأشرف بن قلاوون [٦٨٩ - ٦٩٣هـ = ١٢٩٠ - ١٢٩٣م] لمدينة عكا من يد الصليبيين في [١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ - ١٧ يونيه سنة ١٢٩١م] القضاء المبرم على جميع آثار تلك الغزوة التي استمرت قرابة القرنين من الزمان.

(1) الحجر ٩

لقد تعلمت الغزوة الاستعمارية الحديثة من سابقتها درسا خطيرا وخطرا؛ فجاءت معها بفكر حضارتها المنتصرة جنبا إلى جنب مع أدوات الدمار الحربي التي اخترعتها تلك الحضارة فبأدوات الدمار تفتح الأرض وتقبض على منابع الثروة، وبالمعسكرات والتجارة والبنوك الأموال تنهب ثروات عالم الإسلام واقتصاده وخيراته وثمار سعيه. وبالقواعد العسكرية تتحول هذه البلاد إلى هامش يحقق الأمن لأوروبا الاستعمارية. وبالفكر التغريبي يتم أسر العقل العربي والمسلم حتى ينسلخ عن منبعه الحضاري العربي الإسلامي المتميز فيتحول هو الآخر إلى هامش للحضارة الأوروبية المنتصرة.

بل لقد رأى دهاقنة هذه الغزوة وساستها أن التغريب والنجاح في محو الشخصية القومية المتميزة للعرب والمسلمين وتحويل أمتنا إلى هامش لحضارة الغرب هو الضمان لتأبيد النهب الاقتصادي لبلادنا ولبقاء هذه البلاد قواعد لأمن الغرب حتى بعد زوال الشكل السافر والمسلح للاحتلال فبالتغريب يقع العرب والمسلمون في «الأسر الحضاري» وتصبح تبعيتهم للغرب هدفا يسعى إليه التابعون.

* * *

ومنذ البدء كان الأعداء على وعي بتلازم العروبة والإسلام، فما حصل هذه الأمة عبر تاريخها الطويل وخلال كل الصراعات التي خاضتها في ذلك التاريخ فمنذ أن ظهر الإسلام عقد التاريخ لواء قيادة الشرق للأمة العربية. ومنذ ذلك

تشريع كتاب صفحته «والإسلام» هي أصدق مصاحبات والتعبت في محنته الآن ضد ما فرض عليها من مخاطر ودواهم وطالب عن تحديث.. ومن هنا كان اتجاه سهام التغريب إلى «العربية» و«الإسلام».. ومن ثم كان إحداق تحاصر مخاطر التغريب بالأزهر حصن العربية، وقلعة «الإسلام».. وكان الدور الرائد والفريد الذي نهض به الأزهر في أخطر ميادين صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة.

حقاً لقد أحكم الاستعمار قبضته على أجهزة الدولة فصبغها بصبغته الإدارية بل ونجح في أن يحقق قدم حضورته الغربية المعمار وتوجه ونحصر المشروعية في هذه الأجهزة.. ونجد فكريته التغريبية بواسطة «كتب الاستشراق» وأساتذة الاستشراق لدى قطاع من مثقفات حديثة للمساحة الكبرى من عقليتنا.. وغدت القوانين المستمدة من فلسفة حضارته في التشريع هي السائدة والحاكمة في مؤسسات قضائية بدلاً من فقه المعاملات الذي أبدعه فقهاؤنا العظام.. وتحولت مؤسساتنا الدستورية ومعها دساتيرنا إلى صورة شبيهة بنظائرها في الغرب الاستعماري.. وغدت أدبنا الغربي تشكل «الرؤى» و«الأفكار» و«المعايير» في الأدب والفن، بل لقد استعرنا أدوات التعبير كما استعرنا القواعد الفكرية.. وتحقق بمشكل حتى نجد في حياتنا الفكرية مكانا للحديث الذي ابتدعها الغرب لما اختصت به مجتمعاته من إشكالات.. وفي العلوم ومناهجها، وفي الفلسفة ومقولاتها سادت مناهج

المعرفي الأدبية وإلى نقض العقل [illegible]

[illegible] نقدية [illegible] عن وسطية الإسلام التي

[illegible] واحد [illegible]

[illegible] الله [illegible] وكذلك

الأسطوري الكوني [illegible] في [illegible] على [illegible]

ومتوسطيهم [illegible] تقدم السلوكية صورة [illegible] في [illegible] في

[illegible] وأصبحت صحفنا [illegible]

نفس مصيرها في الغرب وغدت المرأة الحريم مملوكة

[illegible] لا ترجع إلى صورة العربية الإسلامية [illegible] في

[illegible] في [illegible] والرأي في [illegible]

في نكوص الأسرة [illegible] المجتمع الأساسية [illegible]

ومشاركة في إحياء [illegible]

لتسلك [illegible] المرأة العربية [illegible] الاستبداد [illegible]

استحلال ذوات [illegible] على [illegible]

الأحزاب السياسية [illegible] المصريات [illegible]

وقواعد التنظيم فضلا عن [illegible] لدى كثير منهم

[illegible] الغرب الاستعماري في هذا [illegible] وظهر

[illegible] عن [illegible] إلى [illegible] في [illegible]

[illegible] والكتاب [illegible]

هكذا وعلى هذا النحو شهدت [illegible]

وامتدت [illegible]

[illegible] في جامعات الغرب [illegible] في جامعاتنا [illegible]

جامعات العربية. اللهم إلا من عصم الله من شر هذا الطوفان الطاغي الذي اقتحم ديارنا على ركام الاستعمار الحديث

الازهر

ولكن الأزهر ظل وفيا في موقفه المتحصن بالعربية والإسلام، مدافعا عنهما ورافضا كل ألوان التغريب ومثالا لاستقلالية [illegible] التوحيد الذي رفض الثنائية [illegible] [illegible] ذكر منه [illegible] حتى ظهرت المراسلة في رفض التغريب [illegible] الإسلامية التي سرعان ما تجاهد من أجل الإسلام السياسي والدولة الإسلامية

وهنا من حق المرء أن يوجه واحدة من التساؤلات

هل استطاع الاستعمار دون كثير عناء أن يمد طوفان التغريب في [illegible] حاصرة الأزهر [illegible] [illegible] السعودية على الأصح رغم ما للأزهر من تاريخ عريق [illegible] في العربية والإسلام من ضمانات [illegible] مستقلة [illegible] في معركة التغريب وهذا لم تتسع الدائرة الرافضة للتغريب من حول أزهرنا العريق؟

في اعتقادنا أن السبب الرئيسي في ضعف إمكانيات الأزهر للمقاومة المبكرة للتغريب كامن في أن الهجمة التغريبية قد داهمت الأزهر وهو في لحظة ضعف [illegible] وأنه قد خاض معركته هذه وهو أشبه ما يكون بمن نزع سلاحه [illegible] وعلى الأقل سلاحه الأفعل في مثل هذا الصراع

لقد عاش الأزهر حياة مصر والعروبة والإسلام كلما حدث يحدث في الأمة ويتفاعل بها، يقوى بقوتها ويضعف بضعفها علما كانت العصور الوسطى، وسيطرت السلطة العسكرية المملوكية لا عجمية على الدولة، دخلت حضارتنا دور الأفول فتوقف الإبداع والتجديد والاجتهاد في ميادين العروبة والإسلام. وبعد مرحلة «التجميع والتصنيف» المملوكية انحدرت إلى مرحلة الشروح والحواشي والتهميشات العثمانية فضعفت فعالية سلطة الأزهر عن الميدان وعن دور فكرية لتعريب بلدان تلك التي جاءت مسلحة بثمرات إبداع حضارة مبصرة، ملكت العلم وتسلقت به وامتلكت الأرض وأحكمت قبضتها على رقاب المستضعفين.

وقد أسهم في زيادة ضعف الأزهر عن مقاومة ما أصابه به العثمانيون خلال القرون الثلاثة التي سبقت غزوة الاستعمار وهجمة التغريب:

■ فالسلطان العثماني سليم [٨٧٥ - ٩٢٦هـ = ١٤٨٠ - ١٥٢٠م] عندما فتح مصر [سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م] نزع من عروقها أزكى دمائها وحملها معه إلى بلاده عندما نزع من مصر ألفا وثمانمائة إنسان، فيهم أبرز الصناع والعلماء والمبدعين في مختلف الفنون والصناعات، ومنهم بعض قضاة القضاة وبعض الفقهاء. لقد فرّغ عقل مصر من أبرز حملته وصنّاعه فزادت حسرتها بفقدهم عن حسرتها في التحف والنفائس والمصنوعات والآثار التي اغتصبها هذا السلطان من المساجد والأضرحة والقصور وحملتها له قوافل الجمال إلى الآستانة.

وكان تعطلت بمصر خمسون صناعة، أصاب الضعف والعطب مكتبات الأزهر الشريف.

■ وبعد أن كان الأزهر يعد بمصر فضلاً عن غيرها بانفصاله صبيحة فتح مصر للأتراك منذ محرم سنة ٩٢٩هـ نوفمبر سنة ١٥٢٢م.

■ وكانت المدارس التي بنيت بمصر منذ عصر صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] قد عدت الامتداد المادي والفكري للأزهر، تدرس فيها شيوخه ويتخرج فيها العلماء على شيوخه، فجاء العصر العثماني ليدمرها تماماً، حتى تحدث علي مبارك باشا [١٢٣٩ - ١٣١١هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] عن ذلك في [الخطط] فيقول: "فقد أهمل أمر المدارس، وامتدت أيدي الطمع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط واقفيها، ومنعوا الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فتحولوا عن ملازمتها وصار ذلك يزيد في كل سنة عما قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس منها بالكلية وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب، فامتدت أيدي الطمع إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى صار بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة زريبة أو حوشاً أو غير ذلك ولله عاقبة الأمور".

١ [illegible] ص [illegible] طبعة القاهرة سنة [illegible]
٢ المصدر السابق ج٢ ص [illegible]
٣ علي مبارك [الخطط التوفيقية] ج٣ ص [illegible] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

■ وبقدر ما تعكس الفقر المادي والفكري الذي مرت به المرحلة العثمانية على الأزهر، فإنها تعكس غربته عن العلوم التي أبدعها السلف والتي أسست عليها صفحة الأزهر الحضارية. ووقف التدريس فيه عند الكتب التي ألفها «علماء» العصر المملوكي العثماني - وهو العصر الذي توقف فيه الإبداع وأغلق فيه باب الاجتهاد - بل واقتصر التدريس غالبًا على علوم الوسائل والأدوات. حتى لقد غدت علوم وفنون مثل المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، غريبة ترتاب فيها الكثير من الشيوخ ويخشون ضررها على الإسلام!

وفي الحوار الذي يحكيه المؤرخ الجبرتي [١١٦٧ – ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ – ١٨٢٢م] والذي دار بين الوالي التركي أحمد باشا [كور وزير] - وبين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوي [١٠٩٢ – ١١٧١هـ = ١٦٨١ – ١٧٥٧م] تجسيد للحالة الفكرية التي بلغها الأزهر [١١٦٢هـ = ١٧٤٩م] أي قبل نصف قرن من حملة بونابرت وبدء هجمة التغريب.

سأل الوالي التركي: المسموع عندنا بالديار الرومية [التركية] أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها، فلما جئتها وجدتها كما قيل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه».

شيخ الأزهر: هي يا مولانا، كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.

الوالي: وأين هي؟ وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل، ونبذتم المقاصد.

شيخ الأزهر: غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث.

الوالي: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة، وغير ذلك.

شيخ الأزهر: نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك.(١)

هكذا صنعت العقلية العثمانية بالأزهر فقصر عن مجاراة كبرى مشاهير المدارس التي ملأت هذا المجال، وصبغته بالفقر الفكري الذي كان سمة لهذه الحقبة في كل المجالات وجميع الولايات، وهكذا جاءت الهجمة الفرنسية القوية تجتاح الأزهر أشبه ما يكون بالفارس الذي يحمل سلاحاً تراكم عليه الصدأ وعلاه الغبار.

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ج ٣ ص ٨٢ – ٨٥، طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة سنة ١٩٥٩م

لكن الأزهر [illegible] لم يستسلم [illegible] كذلك

يستسلم لتيار التغريب. لقد حصن موقعه، فنجا، لأكثر من قرن ونصف من تأثيرات التغريب. ومن وسط التحدي الذي [illegible] التغريب الاستعماري [illegible] إلى أن تعود الأمة إلى ذاتها وهويتها الحضارية المتميزة، والتي بدونها لن تتحقق بها الاستقلال الحقيقي عن التبعية للاستعمار!

والأمر الذي يثير الدهشة والإعجاب معًا أن الأزهر في معركته هذه التي قاوم بها التغريب قد استخدم كل أسلحته السلبي منها والإيجابي على حد سواء!

المقاومة بـ «المحافظة»!

في ظروف [illegible] ضد التحديات التي فرضتها [illegible] الأعداء [illegible] على أهلها واستمرار من قدر الذين لا يفقهون الحداثة والعنف واستخدام التي تملكها هذه التحديات على الجزائر مثلاً، وعندما مارس الاستعمار الفرنسي قهر لسحق [illegible] للشعب الجزائري ومسخ الهوية الحضارية للأمة [illegible] فرنستها وسلخها عن العروبة و[illegible] عن الإسلام [illegible] الجزائريون [illegible] عن ذاتيهم الحضارية وهويتهم القومية بكل ما [illegible] بهم [illegible] من أسلحة وإمكانيات. وعندما أصبح التقليد يعني الفرنسة والانسلاخ عن الهوية المتميزة عن المستعمرين أصبحت «الأمية» سلاحًا حميت به العامة واعتصم به الجمهور ضد الذوبان في حضارة الاستعمار فالذين ظلوا على «أميتهم» ظلوا عربًا مسلمين حتى قيض الله

بسلفيته العربية المسلحة المناضلة ممثلة في [جمعية العلماء المسلمين بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فخاضوا المعركة المقدسة التي أعادت الجزائر إلى أحضان العروبة والإسلام.

وفي صراع الأمة ضد الغزوة الغربية صنع الصراع لأكثر من علماء الأزهر شيئاً شبيهاً في مواجهة الفكرية التي لا تعترف بغير «العقل» - بمفهومه اليوناني - والتي تمثل نهج الحضارة الأوربية التي لم تعترف بعلاقتها بالوحي والنصوص والمأثورات، فحصن جمهور علماء الأزهر - والأزهر كمؤسسة تعليمية - بالنقل والنصوص والمأثورات.

وكانت الحضارة الغازية قد ادعت «الصعود والنهضة» ورجحت كفتها كل الرجحان عندما عقدت المقارنة بينها وبين الفكرية التي سادت في العصر المملوكي العثماني، ورفضاً لهذه الحضارة الغربية استمسك الأزهر كمؤسسة والجمهور الأعظم من علمائه بهذه الفكرية التي سادت في تلك القرون، فقد اعتصموا بالقديم على علاته خوفاً من «الجديد الغريب» وانطووا على الذات يحتمون من الغرض حذراً من أن يقتلعهم الجديد الوافد.

ولقد كان لهذا الموقف المحافظ على القديم من والمتسم بالجمود في محافظته هذه منطقه الذي فرضته ظروف الصراع، فالمحافظة على الذات بما فيها من سلبيات خير من فقدها بالكلية، وبقاء القديم على علاته أولى من سيادة الجديد التغريبي الذي يهدد بسحق الشخصية القومية

والهوية الحضارية سالمة، وفي الحالة الأولى - المحافظة والجمود - تبقى الذات وتبقى مكانتها محدودة ومطمورة، أما في الحالة الثانية - التغريب - فإن الخطر يحدق بمستقبل الأمة الحضاري ويهدد بسبب الذوبان.

ولكن إذا كانت مسيرة فريق «المحافظة» على القديم والاعتصام به قد بلغت بالمحافظة إلى حد «الجمود»، وكانت مواقفهم محدودة الخطورة في «التغريب» وهو خطر، وموقف لا يخلو من الوجاهة، ولا يعدم منه الإيجابيات الخاصة بالثبات في إطار عصره وعلى ضوء الخطر الذي تصدى له الحديث في الأعمار المغربية بين هذه الدعوات من أسماؤهم للأمة وصحت واصبلا وبين الذين تغربوا فأصبحوا - كما قال جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] - منافذ لتطرق الأعداء، وطلائع لجيوش الغالبين، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

والمقاومة بـ «التجديد»

لكن فريقًا من منتسبي علماء الأزهر رفضوا موقف الجمود، ورأوا المخاطر الكامنة في مقولة التغريب، فاستبعدوا الجمود، وشرعوا ينبهون قومهم إلى ضرورة «التجديد» باعتباره الطريق الأكثر أمنًا، والسبيل الأفعل في الحفاظ على ذاتية الأمة الحضارية والنجاة بمستقبلها من الذوبان في حضارة الغزاة

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٧ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

بعد أن أصروا على المحافظة والجمود والاكتفاء على فكرية الحقبة المملوكية العثمانية قد تضمن نجاة المحافظين من الذوبان والتغريب، لكنها لن تضمن نجاة الأمة من هذا الخطر الداهم، لأن مذهب المحافظة والجمود لا يقدم البديل الذي ينافس ما يقدمه المتغربون، بل إن ما لدى المحافظين لا يعدو فكرية عفا عليها الدهر ولا علاقة لها بجوهر فكر الإسلام وإبداع المسلمين في عصر الازدهار الحضاري.

أبصر أعلام التيار التجديدي هذه الحقيقة، وطرحوا منطقهم الجديد:

- إننا إذا لم نجدد فقه المعاملات ونطوره بالاجتهاد، فسندفع الناس تحت إلحاح الضرورة والافتقار إلى البديل، سندفعهم لتبني القوانين الوضعية على ما فيها من خلاف للشريعة ومخالفة للدين!

- وإننا إن لم نجدد أساليب الكتابة والتعبير ونطور العربية كي تستوعب فكر العصر وعلومه، فإننا نفتح الباب واسعًا للدعوة للكتابة بالعامية وتدريس العلوم بلغات «الفرنجة»، وتبني مذاهب الغرب وأساليب أهله في التعبير!

- وإن نحن لم نجدد فكرنا الإسلامي، فنخلصه من سلبيات العصور المظلمة وخرافاتها، ونحيي العقلانية الإسلامية المتميزة ونطورها، غلبتنا على عقول الناشئة واستولت عليها رغمًا عنا فلسفات الغرب اللادينية!

فالتجديد سيصبح أن نحيي من فكرنا الإسلامي المطلق والمصدر والمكون الأول لنمط حضاري متميز سيقدم بديلاً لأمة باعتباره السبيل لنهضتها الحديثة وبعثها القومي الجديد وبذلك يتقدم الأزهر – باسم الإسلام وتجديده – بالبديل المنافس، عن جدارة واقتدار، لعبقرية التغريب التي تبشر بحضارة الغرب سبيلاً أوحد للنهضة والتقدم. أما المحافظة والجمود فإنهما قد أفقدا دولة المحافظين من التغريب إلا أنهم لعجزهم عن تقديم البديل الصالح والقادر على منافسة الحضارة الغربية المنتصرة، وفي المدى الطويل، يمثلان أكبر خدمة تقدم لدعاة التغريب، فالمحافظة والجمود سيدعان الأمة فريسة سهلة سريعاً ما تقع في شرك المتغربين.

هكذا فكر وبشر المجددون من تابعي علماء الأزهر الشريف وعلى هدي الدرب التجديدي تواصلت حلقات أعلام التجديد الذين حاولوا وصارعوا تيار المحافظة وتيار التغريب كليهما

الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٥م]

أما طليعة هذا التيار التجديدي فهو حسن العطار، ذلك الشيخ الذي جاب أقاليم الدولة العثمانية فاطلع على مواطن ضعفها ثم اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر يعلمهم العربية ويقرأ كتبهم ويطلع على تجاربهم العلمية ويتدبر مدى تقدمهم في الفكر ووسائلهم في التعمير وبعض أسرار قوتهم

وبعد أن شخص الشيخ العطار مواطن ضعفنا وأسبابه ومظاهر قوة الغرب وعوامله أدرك أن نقطع فيها عن علوم الحضارة

العربية الإسلامية الحقيقية والوقوف عند علوم الوسائل والأدوات وإهمال علوم المقاصد والغايات هو الذي يحول بين الأمة وبين امتلاك سلطان العلم ذلك الذي امتلكته أوربا فتسلحت به وجاءت لتستعبد بقوته وجبروته أمة الإسلام فتصدي لأوربا لن يكون بالمحافظة والجمود [illegible] والتقليد ومن هنا كانت صيحة العطار [illegible] إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها

لقد [illegible] في العلوم [illegible] غريبة عن الأزهر بل [illegible] ووجه طلابه إلى دراسة هذه العلوم [illegible] ثم [illegible] عصره عن [illegible] هذه العلوم [illegible] في العلوم الشرعية – لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التي [illegible] حتى كتب [illegible] في [illegible] ثم هم مع ذلك – [illegible] والصنائع المخترعات

ثم يمضي [illegible] هنا [illegible] عن [illegible] في عصره، [illegible] والاختراعات [illegible]؟

[illegible]

وقوفهم عند مؤلفات عصور الانحطاط دون عصور الازدهار والإبداع منقول. ومن نظر في ذلك وفيما انتهى إليه الحال في زمان وقف فيه على [illegible] منهم بمعرفة عامة أهل [illegible]

قال المرصفي: أمكن النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عندنا وقد اقتصرت على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم مكررين طول عمرهم ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها حتى كأن العلم فيها

وفيما يتعلق بتجديد سبل التعليم، تحمس المرصفي [illegible] واستحدث [illegible] للفصحى وأدخل [illegible] الكتابة في دروسه بالأزهر ولفت أنظار طلابه إلى الأمهات في فن الشعر العربي ككتاب الأغاني للأصفهاني وسلك في تحقيق النصوص القديمة منهجا علميا في توثيق هذه النصوص وتقويم عباراتها ووجه المشتغلين من تلاميذه الشيوخ إلى تدريس الأشعار والأخبار [illegible] ويحث [illegible] وسائل [illegible]

ولقد انعكس هذا التوجه التجديدي للشيخ المرصفي في المصادر التي اهتم بالكتابة وتأليف فيها فوجدت له في الحكمة والمنطق والكلام والعلوم الحديثة مثل الهندسة والطب والتشريح والفلك نحو من ثلاثة عشر كتابا

1 انظر [illegible] ص [illegible] طبعة [illegible] سنة ١٣١٦هـ

2 [illegible] ص [illegible]

3 [illegible] الصحافة العربية [illegible] ص ١٣٩ طبعة بيروت سنة ١٩٦٢م

الشيخ رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م]

وثاني أبرز هؤلاء المجددين، هو الشيخ رفاعة، تلميذ الشيخ العطار.

لقد تخرج الطهطاوي في الأزهر سنة ١٨٢٢م وعمل بالتدريس فيه عامين، ثم وعظ في الجيش عامين، ثم سافر إلى باريس خمس سنوات ليؤم طلاب البعثة العلمية في سنوات لبثهم لكنه تعلم هناك الفرنسية وعلومها، [illegible] فلما عاد إلى الوطن سنة ١٨٣١م أصبح إماماً للحركة الفكرية والنهضة التعليمية على حد سواء.

والبعض يتوهم أن فرط إعجاب الطهطاوي بعلوم الحضارة الأوربية أن الرجل كان الصيغة لدعوة التغريب، على حين أنه [illegible] من أبرز دعاة التجديد لحضارتنا العربية الإسلامية.

● لقد وعى الطهطاوي تراث أمته، وعرف أن العلماء في تراثنا الحضاري لم يكونوا هم الفقهاء فقط، ولقد وجد أن التدريس على عهد الأزهر قد خاصم علوم الحضارة، ووقف عند علوم الشريعة، فانتقد هذا الوضع لا من منطلق المتغربين المنبهرين وإنما من منطلق من يضرب المثل ويستمد العظة والعبرة من نهج أمة صنعت تراثها الحضاري، قال الطهطاوي بعبارته: "ولا يتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس، فإن العلماء يطلق على من له معرفة في العلوم العقلية، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في

العلوم عند غيرهم، وبذلك نعرف خلو بلادنا عن كثير منها. وإن الأزهر، وجامع بني أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العلوم العقلية، كالمنطق ونحوه من العلوم الآلية.

■ أما علوم المقاصد والغايات، والتي خاصمها الأزهر يومئذ، وأساء بها الظن، وخاصة علوم الحكمة العملية التي رآها متداولة بين يدي الأوربيين، فإن الطهطاوي يدعو إلى تعلمها، فهي علوم إسلامية الأصل إسلامية الانتماء، وهي علوم التمدن المدني، ولم تضار الشريعة ولا التمدين الحضاري إذا جاورت هذه العلوم علوم الشريعة في مناهج الأزهر الشريف. فهو يدعو طلاب الأزهر وشيوخه إلى أن يضيفوا إلى علوم الشريعة معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التي لها مدخل في تقدم الوطنية. فهذه العلوم الحكمية العملية التي يظهر الآن أنها أجنبية هي علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة.

■ وإن الطهطاوي - وهو الذي نهض بالمسئوليات الرائدة في تعميم التمدن المدني، على عهدي محمد علي باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] والخديوي إسماعيل

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج٢ ص١٦١.

(٢) أي المتعلقة بحكمة وعلة، والخاصة بالتطبيقات، ويقابلها علوم [illegible] من الوحي، والتي تتقيد بها مصر وطنية.

(٣) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج١ ص٥٢٤.

[١٢٤٥ - ١٣١٢هـ ١٨٣٠ ١٨٩٥م] - يحدثنا عن أن «شرح عموم الحضرة بعلوم الشريعة في الأزهر هو وحده الكفيل بتحقيق الآمال «بمقدار سلوك جادة الرشاد، والإصابة منوط بجماعة الأزهر، التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة معرفة سائر المعارف البشرية»

واليوم وبعد نحو قرن من كتابة الطهطاوي لكلماته هذه، نتساءل ترى لو وضعت أفكار الرجل في التطبيق أكان هناك مجال لما حدث من ازدواجية في مؤسسات التعليم أتاحت للتغريب نصيب الأسد في هذه المؤسسات؟

■ وعندما استجابت الدولة لتأثيرات التغريب الاستعمارية ولم تستجب لتيار المحافظة بالاجتهاد الفقهي لكي تجعل الشريعة تلبي احتياجات العصر فطلبت من الطهطاوي أن يترجم القانون الفرنسي من باب العلم بالفكر القانوني الأوربي ولا ثم تصاعد تيار التغريب فحكم هذا القانون الفرنسي شريعة للمحاكم المختلطة كتب الرجل ليذكر قومه بتراثهم الإسلامي في فقه المعاملات، وليدعو إلى تطويره بالاجتهاد كي يلبي احتياجات العصر فلا تقع مؤسساتنا القانونية والقضائية في أسر التغريب كتب يقول: «والمعاملات الفقهية لو نظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال فما هو سهل العمل على من وفقه الله تعالى من ولاة

(١) المصدر السابق ج١ ص ٥٢٣

الأمور المستنبطة. ذلك أن من أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية حيث بوبوا أبواب المعاملات الشرعية أبواب مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة، والمضاربة، والقرض والمخابرة والعارية والصلح، وغير ذلك

• وكما كان الطهطاوي صريحا في دعوته للاستفادة من التمدن المدني العقلي في الحضارة الأوربية فقد كان صريحا كذلك في دعوته للحفاظ على تمايزنا الفكري والثقافي عن الطابع المادي في الحضارة الأوربية، والذي جعل عقلانيتها منكرة للوحي والشرع. جاء حذر رفاعة الطهطاوي ويحذر من الوقوع في شركه وحبائله وهو يحكي كيف أن للأوربيين في العلوم الفلسفية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ويقيمون عليها أدلة يعسر على الإنسان ردها ... كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من البدع. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع

فالعقل الذي يتحفظ الطهطاوي حتى على تحسينه وتقبيحه للأشياء ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها هو العقل في الحضارة الأوربية المنكر للنقل، والذي لا يتخذ من الوحي إطارا يتحرك فيه. أما العقل في حضارتنا فذلك الذي رأس

(١) نفس المرجع ج١ ص ٣٦٩
(٢) نفس المرجع ج ص ١٤

العقل» وباحي معه في الهدايه للانسان بالنور، لدى الثمرة احاوهما فهو مما تتمير به حضارتنا وتمتاز، وبسنا مدعوين من قبل الطهطاوي والنهضة التي كان علما عليها الى التخلي عن هذا الذي يميزنا حضاريا عن الاوربيين.

الامام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]

أما الامام محمد عبده فلقد كان ابرز اعلام هذا التيار التجديدي، واعظم من تكونت للتجديد من حوله مدرسة في تاريخنا الحديث. لقد نضج عقل الامام ومصر رازحة تحت الاحتلال الانجليزي ومن فئات النهضة تقليد المهزومين للمنتصر تقليدا عميا، وأكثره ما يكون في الشكليات والسيئات الامر الذي زاد من مخاطر التغريب. وعلى الجانب الاخر كان هناك المحافظة والجمود في الصراع ضد المتغربين خصوصا مع تركية السلطة الاستعمارية لتيار التغريب. وأمام هذا الاستقطاب الذي جعل الامة فريقين المتغربين واهل الجمود على الاسلاف. الامام رفضه كلا الموقفين وبشر بالموقف الثالث الداعي الى تجديد «دين» الامة عن طريق تجديد «دينها» بتنقية اصوله وجواهره من غبار عصور الانحطاط. ولقد حدثنا عن هذا الموقف الثالث الداعي لتحرير العقل الاسلامي كي تنهض الامة وتبعث حاضرها وتبني مستقبلها انطلاقا من الاصول وعصور الازدهار وبالتجاوز لمرحلة الجمود والانحطاط. حدثنا عن هذا الموقف فقال: «لقد نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر وتخلف فيما فيه يتحلون

ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سمعت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعرفون عنه، ونادى بالحسن من وجده، ودعوت إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى:

١- تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري، فهو صديق للعلم باعث على البحث في أسرار الكون، داعي إلى احترام الحقائق الثابتة، ومطالب بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل.

٢- إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير.

٣- التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

وقد خالفت في الدعوة إلى ذلك رأي الفئتين العظيمتين اللتين تتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم.

وعلى حين كان تيار المحافظة يرفض التجديد والتغيير في علوم الأزهر وطرق التدريس فيه، وتيار التغريب يدعو إلى نبذ من حيث انتهت أوربا، مصبح أوربيين يفكر كما يفكرون ويحب

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ج٢ ص ٣١٨-٣١٩، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م]

كما يحيلون ... عن الأستاذ الإمام إلى الموقف الثالث، الرافض لدعوتي الجمود والتغريب على حد سواء.

■ فهو ينتقد منهج التعليم في المدارس الأميرية وفي المدارس الأجنبية ... ينقد مناهج الأزهر الشريف.

■ وهو قد عقد الأمل على الإصلاح على تجديد المؤسسات الدينية الكبرى مثل الأزهر والقضاء الشرعي والأوقاف وتحدث عن ... إصلاح الأزهر وتجديده هو طوق النجاة له من الخراب.

■ وانتقد التقليد ... وهاجم سلفية ... النصوصية ... ومجد العقلانية الإسلامية التي جعلت العقل أعظم السلطان حتى في ميدان النصوص والمأثورات فالذين يقفون عند ما يفهم من لفظ الوارد دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين هم أضيق عقلا من المقلدين وليسوا للعلم وبناء ولا للمدنية أحباء ... والعقل هو جوهر إنسانية الإنسان وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة ... والقرآن وهو وحده المعجز الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم فهو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيه وطلبت منه حق النظر في أنحائها ونشر ما انطوى في أثنائها فالإسلام لا

١) المصدر السابق ج ٣ ص ٩١، ١١٢
٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١
٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٣١
٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨، ج ٣ ص ٢٩٩

يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري. والمرء لا يكون مؤمنا إلا إن عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن ربي على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحا بغير فقه فهو غير مؤمن. لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه... وليس هناك أدنى خلاف بين الدين والعلم فسنن الكون التي هي موضوع البحث العلمي هي سنن الله في الأمم والأكوان، وهي ثابتة لا تتبدل. ومهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر وأتى بما يستحكم تلك السنن فهو يجري مع طبيعة الدين وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ولا تنفر منه»(٢).

■ ولما كان تيار «المحافظة الجامدة عند مفكري العصر المملوكي العثماني» قد عجز عن تقديم التدبير الذي تنهض به الأمة، على حين يدعو تيار «التغريب» إلى البدء من حيث انتهت أوربا، فإن الأستاذ الإمام يدعو إلى تأسيس النهضة على الدين: «فهذه سبيل التجديد والإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء

(١) الأعمال الكاملة ج٣ ص ١٥١، ٢٧٩، ٢٨١.
(٢) المصدر السابق ج٣ ص ٥٠٢، ٢٨٤.

ولا يسيطر عليه إلا بجد من عماله أحدا، وما أكثر الذين كانوا تهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره وهو خير لذويهم والعلماء في زخرف علمهم أنه خف من حديث ما لا يحتم بهم به، فلم يعد وسعه إلى غيره"(1).

وأساس النهضة على الدين لا يعني الوقوف عند حدود علوم الشريعة لأن كل العلوم الأخرى هي إسلامية بمقدار ضرورتها لأنها من أمنة الإسلام وتحريرها وتطوير حضارتها وتعمير مجتمعاتها. فالنهضة الإسلامية وسبق الأوربيين وسبقهم يتطلب من ولاة أمور المسلمين تجديد الدين والدنيا معا. "ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم"(2).

* * *

تلك لمحات من قصة الأزهر مع التغريب الذي كان ولا يزال الخطر الأكبر الذي تهدد ويتهدد تميزنا الحضاري منذ بدء الغزوة الاستعمارية الحديثة، قبل قرنين من الزمان.

إنها صفحة مشرقة في تاريخ الأزهر نرفعها شاهدا على المؤسسات التي سقطت كليا أو جزئيا في براثن التغريب

(1) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٣١
(2) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٥١، ٢٥٢

فقد كان للأزهر في هذا الميدان شرف رفض ومقاومة شرك
في ذلك المحافظون من أبنائه «والمحدثون»

وإذا كانت قصة الصراع بين الأزهر وبين التغريب — والتي هي في الحقيقة قصة صراع حضارات متميزة ومتوسطة وبين «الدين» و«الدنيا» بين «الحكمة» و«الشريعة» بين «العقل» و«النقل» بين «القديمة» و«الأمة» بين «الفرد» و«المجموع» بين «الجسم» و«الروح» بين «النص» و«العقل» هي قصة صراع حضارتين هذه ضد حضارة الاستبداد والعنف والتعصب وتشريع البدع، إذا كانت هذه القصة مليئة بالدروس والعبر والعظات الصالحة للاستلهام، فإن وعي المؤسسة باستلهام دروسها وعبرها وعظاتها هو الأزهر الشريف فكثيرون يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى أن ما صنعه الأزهر من «صمود» في موقفه من شرك «التغريب» الذي تفرد بشرف مقاومته والاستعصاء عليه لأكثر من قرن ونصف من الزمان.

فإذا كان التجديد واردًا ومطلوبًا فهو مستطاع عبر «التغريب»، وشتان بين صقل الذات بتجديد الأصول وتطويرها وبين مسخ الذات عندما تتجاوز الثوابت والمميزات

وبعد..

فلا نحسب أن ثمة شكاً في أن [illegible] أمتنا [illegible] لم تعد كافية لها وهي تخوض معركة تحررها من بقايا العروة الاستعمارية العربية الحديثة لم يعد كافياً لها ولا محققاً لأهدافها أن تقف عند حدود:

- «الاستقلال السياسي» وما يرمز له من «علم» و«نشيد».
- والاستقلال «الاقتصادي» وخاصة إذا كان يعني «التنمية على النمط الغربي والمرتبطة به»، لأنها ستكون، عندئذ، تنمية للتبعية تفقد سببها بالاستقلال، بل وتنتقص المعنى الحقيقي للاستقلال.

ولا بد من أن تضيف أمتنا إلى شعاراتها، المعبرة عن أهداف معركتها ضد الاستعمار، شعار:

- الاستقلال الحضاري، لأنه هو الذي يعطي شعاري «الاستقلال السياسي» و«الاستقلال الاقتصادي» مضمونيهما الحقيقي والصادق، ويحقق ما وراء تحقيقهما من غايات وأهداف، كما أنه هو الضامن لرسوخ الاستقلال الوطني والقومي في وجه محاولات التسلط والاحتواء التي تعددت سبلها

وحققت انتصاراتها على الذين لا يحملون غير سيف الاستقلال الحضاري الأصيل ولتعيد لكل المعارك والأهداف التي تسعى الأمة لتحقيقها في معركتها ضد الاستعمار.

* * *

وعلينا أن نتذكر ونعي دروس التاريخ، تاريخ صراع منطقتنا وأمتنا ضد موجات الغزو الاستعماري التي هجمت علينا ديارنا عبر تاريخ طويل.

■ فعندما فتح العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص [٥٠ق هـ - ٤٣هـ = ٥٧٤ - ٦٦٤م] لم يكن هزيمة جيش البيزنطيين وجلاء حامياته عن مصر بكافية لتحقيق الاستقلال الحقيقي لمصر عن البيزنطيين، لأن مذهبهم الديني «الملكاني» كان قد احتل مؤسسات الفكر والدين في البلاد، وأقصى المذهب الشعبي المعبر عن فكرية وأيديولوجية المذهب اليعقوبي وطارده إلى الصحراء. ومن هنا كانت إعادة عمرو بن العاص بطرك القبط بنيامين [٣٩هـ - ٦٥٩م] إلى مركز التوجيه الفكري وإعادة كنائس مصر ومؤسساتها الفكرية إلى شعبها ومذهبه وفكريتها كانت هي الاستقلال الفكري والحضاري هو المحك والمعبر عن أن مصر قد تحررت حقيقة من احتلال البيزنطيين.

■ وعندما انتصرت أمتنا على آخر فرسان الفرنجة الصليبيين [٦٩٠هـ - ١٢٩١م] في مواجهة استمرت قرنين فقد

كانت الغزوة الصليبية هجمة بربرية لا يملكون سوى العنف والدمار ومن ثم لم يخلفوا بعدما رحلت جيوشهم عن بلادنا أية آثار فكرية يمكن أن تمثل قيوداً تشد عقل الأمة إلى ركبهم، فتنتقص من حقيقة الاستقلال الذي تحقق بهذا الجلاء.

أما مع الغزوة الاستعمارية الحديثة والتي تعددت جبهات معارك التحرر منها فإن الأمر أكثر حصراً وأشد تعقيداً فقد جاءت هذه الغزوة بحضارة منتصرة استرقت بريقها عقول فريق من صفوة مفكرينا واستهوى أسلوب عيشها قطاع عريض من شعوبنا فكان أن أصبح الغرب حيث استعمار آخر لا بد من صراعه ... نحو تحقيق المعنى الكامل للاستقلال.

ففي العقل، وفي الوجدان، وفي المؤسسات الفكرية والتعليمية والتشريعية، وفي المنتدى والصحيفة والكتاب والإذاعات المسموعة والمرئية ودور المسرح والسينما الخ الخ.. هناك مهام ومهام للذين يدركون أن الاستقلال الحقيقي، والتحرر الكامل من جميع آثار الحضارة الغربية الاستعمارية الحديثة لن يتحقق إلا بالاستقلال الحضاري، الذي تعود به أمتنا العربية الإسلامية لتحتل مكانها الطبيعي واللائق في منتدى الأمم العريقة صاحبة الحضارات العظيمة والمتميزة ومن ثم تسهم في ثراء الفكر الإنساني من جديد مواصلة بذلك مسيرة أسلافها العظام.

وبقدر عصمة المهمة بحد تحقيق أكبر قدر من وضوح الرؤية للغايات، والوسائل والمعاني، لكنه تحقيق هذه الغايات.

إن فتح النوافذ العقلية على كل الموروث الحضارية هو السبيل إلى تلافي مخاطر الذبول والموات.

وإن التمييز بين ما هو ضروري ونافع في دعم ذاتيتنا الحضارية المتميزة ومشروعنا الحضاري الخاص، وبين ما هو ضار ناسخ لذاتيتنا ومسود لتميزنا وناسخ لاستقلالنا، إن هذا التمييز هو القضية الأعقد، وهو الجهاد الأكبر في ميدان التفاعل بين حضارتنا وغيرها من الحضارات.

فما أسهل أن ينحاز البعض إلى قوقعة العزلة والانغلاق، وما أسهل أن ينخرط البعض في موكب التبعية الفكرية الحضارية.

ومن هنا كان التجديد للموروث والتطوير للخصوصية ودعمهما بعوامل القوة التي أثمرتها إبداعات الحضارات الأخرى هو الميدان الحقيقي للجهاد الأكبر الذي وجب ويجب على كل قادر على الإسهام في هذا الجهاد بنصيب قل أو جل هذا النصيب.

ولنتذكر دائماً أن التجديد - من خلال مشروع حضاري متميز - هو السبيل إلى النهضة والعودة، على حين كان ولا يزال التحديث على النمط الغربي - وهو في جوهره «تبعية» - السبيل إلى بقائنا هامشاً ملحقاً بـ مركز التحدي الغربي.

(١) [الأعمال الكاملة جمال الدين الأفغاني] ص٢٢٧-٢٢٨

فنتأمل ونحن نختتم هذه الصفحات عن الاستقلال الحضاري .. كلمات الرجل الذي زاد تفكيره ونضاله هذا الطريق في عصرنا الحديث. كلمات جمال الدين الأفغاني التي يقول:

"... إن نهوضنا وتمدننا إذا لم يؤسس على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه. ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق. وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن هو عين التقهقر والانحطاط لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضى بسلطتهم علينا وبذلك تتحول صبغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي".

المصـــــادر

ابن أبي الحديد [شرح نهج البلاغة] تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م

ابن باديس [كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م

ابن رشد (أبو الوليد) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

ابن عبد الوهاب [رسالة هدية طيبة]

[رسالة مفيدة من أحد أهليه]

منشورة ضمن [مجموعة التوحيد] طبعة المكتبة السلفية. القاهرة

ابن القيم [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

أحمد صدقي الدجاني. دكتور [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م

أمين سامي باشا [تقويم النيل] طبعة القاهرة سنة ١٩١٦م

الجبرتي [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م

جمال الدين الأفغاني [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة– طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م. وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م

حسن العطار [حاشية العطار على جمع الجوامع] طبعة القاهرة سنة ١٣١٦هـ

صفي الدين البغدادي [مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] تحقيق علي البجاوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤م

- الطهطاوي (رفاعة رافع) [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م

علي سامي النشار. دكتور [مناهج البحث عند مفكري الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م

علي مبارك [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م

عمر طوسون [البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد] طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤م

المغربي [illegible] [illegible] في الأدب] طبعة القاهرة طبعة بدون تاريخ

فيليب دي طرازي [تاريخ الصحافة العربية] طبعة بيروت سنة ١٩١٣م

الكواكبي عبد الرحمن [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٥

لوثروب ستودارد [حاضر العالم الإسلامي] ترجمة عجاج نويهض تعليقات شكيب أرسلان طبعة بيروت سنة ١٩٧١م

محمد عبده الإمام [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م

محمد عبد الغني حسن [حسن العطار] طبعة القاهرة سنة ١٩[illegible]٨م

محمد عمارة دكتور [العرب والتحدي] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م

[الإسلام والعروبة والعلمانية] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م

[مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م

[العروبة في العصر الحديث] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م

[تيارات الفكر الإسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣م

محمد فؤاد عبد الباقي [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب القاهرة

المهدي محمد أحمد [المنشورات المهدية] تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم طبعة بيروت سنة ١٩٦٩

هانوتو جابرييل [الإسلام والرد على منتقديه] مجموعة مقالات طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م

ونسنك أ. ي. [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩م

الفهرس

أحدث إصـــدارات

الأستاذ الدكتور

محمد عمـارة

ضمن سلسلة (في التنوير الإسلامي)

١ - الصحوة الإسلامية في عيون غربية
٢ - الغرب والإسلام
٣ - أبو حيان التوحيدي
٤ - ابن رشد بين الغرب والإسلام
٥ - الانتماء الثقافي
٦ - التعددية.. الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية
٧ - صراع القيم بين الغرب والإسلام
٨ - د. يوسف القرضاوي: المدرسة الفكرية والمشروع الفكري
٩ - عندما دخلت مصر في دين الله
١٠ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية
١١ - المنهاج العقلي
١٢ - النموذج الثقافي
١٣ - تجديد الدنيا بتجديد الدين
١٤ - الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة
١٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم
١٦ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي أم بالتجديد الإسلامي؟
١٧ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين
١٨ - الحضارات العالمية تدافع؟ أم صراع؟
١٩ - الحملة الفرنسية في الميزان
٢٠ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق؟
٢١ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية
٢٢ - الغناء والموسيقى حلال أم حرام؟
٢٣ - هل المسلمون أمة واحدة؟
٢٤ - السنة والبدعة
٢٥ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان
٢٦ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة
٢٧ - القدس بين اليهودية والإسلام
٢٨ - مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية)
٢٩ - السنة النبوية والمعرفة الإنسانية
٣٠ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين
٣١ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية
٣٢ - السنة التشريعية وغير التشريعية
٣٣ - شبهات حول الإسلام
٣٤ - السلام الاجتماعي للأمة الإسلامية
٣٥ - شبهات حول القرآن الكريم
٣٦ - أزمة العقل العربي
٣٧ - في التحرير الإسلامي للمرأة
٣٨ - روح الحضارة الإسلامية
٣٩ - الغرب والإسلام افتراءات لها تاريخ
٤٠ - السماحة الإسلامية
٤١ - الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً؟
٤٢ - أزمة الفكر الإسلامي المعاصر
٤٣ - إسلامية المعرفة ماذا تعني؟
٤٤ - الإسلام وضرورة التغيير
٤٥ - النص الإسلامي بين التاريخية والاجتهاد والجمود



نهضة مصر

الاستقلال الحضارى

- يعالج هذا الكتاب قضية محورية، من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقساما ثلاثة فى هذا الكتاب:

١- الاستقلال الحضارى.. وماذا يعنى فى النهضة المنشودة لأمتنا.

٢- والعلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامى و «الوافد الغربى».

٣- ونموذج تطبيقى لهذه العلاقة.. من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية - [الأزهر] -.. موقفه من «التغريب» و«الجمود» و«التجديد».

- ووصولاً إلى الإسلام فى بلورة «معالم المشروع الحضارى» الذى ينير لأمتنا طريق الخروج من مأزقها الحضارى، يناقش هذا الكتاب عدداً من القضايا الفكرية الخلافية ..والشائكة:

- معالم الهوية العربية الإسلامية.. وموقعها من «الثبات» و«التغيير».

- والموقف من الحضارات الأخرى.. أهو «التفاعل» .. أم «التبعية».. أم «الانغلاق»؟

- إنها «معالم للنهضة».. و«دليل عمل» للإقلاع الحضارى .. يحاول أن يقدمهما هذا الكتاب.

الناشر



